سكاكر القبلات

عبد الحكيم الوائلي

سكاكر القبلات

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى ٢٠١٩

Dar AL-sawaf
Printing and Publishing for
D.S.P.P
جمهورية العراق – بابل / جوال
07801168410
E-mail:w_alsawaf@yahoo.com

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٩٠٠ لسنة ٢٠١٩ م
سكاكر القبلات
مجموعة قصصية / عبد الحكيم الوائلي
التصميم والإخراج الطباعي : دار الصوّاف للطباعة والنشر
لوحة الغلاف : لوحة (القبلة) لغوستاف كليمت ١٩٠٨
الإشراف الفني : ولاء الصوّاف
حقوق النشر محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى ٢٠١٩

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع ، أو نقله على أي نحو ، أو بأي طريقة الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما .

publication All rights reserved. No part of this may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

الاهداء

الى منعم ......

يبلغ بي الحزن ، أحيانا ، حافة الجنون .. فلا أدري مَنْ يحزن على مَنْ .. وأينا الذي مات آنذاك ؟

ثلاثة مشاعر بسيطة لكنها غامرة بقوة وجهت حياتي هي: اللهفة للحب ، والبحث عن المعرفة والشفقة التي لا تطاق لمعاناة البشر............

برتراند رسل

المقدمة
(عودة الى شغف قديم)

لطالما تذكرت بحسرة روايتي الأولى، أو هكذا حسبتها آنذاك، إذ لم أتجاوز العاشرة من العمر حين ملأت بها دفترا من مئة ورقة وضاع مثل الكثير مما فقد من حقائب الترحال التي حزمت وبعثرت مرارا وتكرارا.. كان بطلي هو جارنا الحوذي إسماعيل، الذي هزني موته المفاجئ من الأعماق، إذ كان أول ميت اراه في حياتي ومازالت ركبته منتصبة في الذاكرة تأبى دخول التابوت .. ترك اسماعيل وراءه زوجة شابة، الهب خيالي ما قد يحل بها من بعده، فسطرته مستعينا بمنهلين؛ اولهما تلك القصص التي تغلغلت في الروح عميقا بصوت ابي، المعبر، يرويها ليلة اثر ليلة بلا انقطاع، صيفا وشتاء، ولتلك الليالي وحدها حكاية مذهلة مبهجة لا تناسبها هذه العجالة، لكنني اعد نفسي والقارئ الكريم بالعودة اليها في مناسبة اخرى. اما المنهل الثاني الذي اغترفت منه لغتي وخيالي، فهي مجموعة من الكتب التي ضمتها مكتبة البيت آنذاك ، اهمها سلسلة روايات عالمية وروايات الهلال وسلسلة من المسرح العالمي والكثير من القصص القصيرة في مجلات الستينات من القرن الماضي، فقد اتيت عليها كلها بشغف محموم، افتقده الآن .. كنت

ارتقي السلم خلسة ، كل يوم، واعتكف في (الحجرة الفوق)وهذا اسمها .. أخطو بحذر بين رؤوس البصل اليابس المنشورة على اتساع ارضيتها، تضرب راسي باقات الثوم وقلائد البانية وخيوط السمك المجفف المعلقة في السقف الخفيض.. الوذ هناك بعالمي، ساعات محلقا مع الاحداث التي تباغتني كما لو لم اكن أنا من يسطرها.

في السابعة عشرة من العمر كتبت بدفتر الانشاء قصة رجل مطارد في جو ماطر نالت استحسان مدرس العربية فكتب ملاحظة بالقلم الاحمر كانت مبعث فخر وزهو ولأجلها احتفظت بالدفتر سنينا قبل ان افقده فيما فقدت.

في الثانية والعشرين، جمعت كل قصصي آنذاك ، مكتوبة على ورق الرايز ، خشية وقوعها بيد رجال الامن، ودفعتها لاحدهم كي تنشر، باسم مستعار، في جريدة طريق الشعب تباعا.. كما قيل لي ، بيد ان صيف عام ١٩٧٩ الذي عصف بالبلاد، قطع بها السبل ، فلم اعد اعرف مصيرها وليس لي منها نسخة اخرى.

في الثمانينات وما بعدها؛ هجرت السرد تماما واستهواني اغراء الشعر والبحث والترجمة، فصدر لي منها ما صدر فيما ظلت جذوة شغفي الاول تعتمل تحت رماد العمر حتى تمكنت مني اخيرا.. فاستسلمت للذة دفئها القديم، فكان هذا الكتاب باكورة عودة ووعد بان اكرس ما بقي من العمر للسرد وحده لا شريك له.

عبدالحكيم الوائلي

الجنة

كانت رياح السموم تفخر حلقي .. حتى غدا لساني مثل قطعة خشب خشنة، ولم يعد جلدي ينز عرقا غزيرا كالعادة، فقد جف بعد ان نفذت اخر قطرة ماء من جودي .. كنت احلم بظل عليقة يلوذ به راسي من هذا الجحيم الذي افقدني ظلي و ظل جملي العجوز، الذي سقط خلفي يلفظ انفاسه الاخيرة.

وفيما كنت اجرجر قدمي الحافيتين الداميتين في هذا البحر اللامتناهي من الرمل الحار ، كانت امتعتي تتساقط تباعا..

نعالي .. كوفيتي وعقالي .. عصاي وخنجري وحزامي .. لقد تخففت من كل شيء إلا هذه الاطمار البالية التي بالكاد تستر جسدي الذي سأتخفف منه بعد قليل واتركه وليمة للضباع والنسور. كنت أتقلى تحت الشمس .. يذيقني العطش طعم الموت غصة غصة ، حتى غامت الدنيا بعيني وسقطت ، مدركا ان نهايتي قد حانت، وها هي اخر انفاسي تسف التراب ، وفجأة .. شعرت بالأرض تتململ من تحتي وتئن بصوت راح يعلو حثيثا حتى غدا مثل رغاء الجمل الغاضب. حينئذ.. فتحت عيني المعفرتين بالتراب ، فهالني ما رأيت .. ثمة وحش مقبل من الافق صوبي ، ينهب الارض

نهبا بما حسبتها قوائم قصيرة مثل قوائم الضب، وله لون افعى ؛ مبقعة بالأخضر والبني وعينان واسعتان مفزعتان ميتتان كالزجاج ، اذ ما كانتا تطرفان البتة.. ظللت احدق بهما حتى بلغني ، وغشيتني سحابة غباره ، وقد وقف عند راسي؛ يزأر ويلهث .. حينئذ تيقنت انه ملك الموت ، او احد زبانيته الشداد، جاء يقبض روحي، فأغمضت عيني واستسلمت له. وشعرت بالحياة تنسل من اوصالي .. حتى انطفأت. وانفتح امامي عالم من النور الباهر، ورأيتني مسجى على محفة بيضاء، تطوف بي ، وفوقي نجوم تمرق كالشهب.. حتى استقر بي المقام في مكان فسيح، حيث جردت من ثيابي المهلهلة القذرة ، وخلعت علي حلة من السندس الاخضر ذات لون وملمس وعطر لامثيل له في الحياة الدنيا. ثم اضجعني ملكان مجللان بالأخضر الزمردي لا يبدو منهما غير العيون ، وقد حسبتهما منكرا ونكيرا، بيد انهما كانا رفيقين بي ؛ ولم يسألاني تلك الاسئلة التي طالما لقنت اجاباتها في حياتي السالفة، بل اكتفيا بتفتيشي بعناية بالغة دون ان ينبسا بكلمة.. وبدا لي انهما لم يجدا عندي ذنبا يستحق العذاب. فربت احدهما على كتفي مطمئنا، ورأيت عينيه تبسمان لي ، واحسب انه بشرني بالجنة، والحق انني بالرغم من الفرح الذي غمرني؛ عجبت من عدم عثورهما على خطيئة ما، لعلمي بما ارتكبت من آثام .. والتي ربما كان ايسرها ؛ العذاب اليومي الذي كنت اصبه على راس امرأتي، التي لم تخطر ببالي إلا الآن ، فلقد قبرتها داخل خيمتنا قبل أن أهيم على وجهي في الصحراء. وتذكرت حينئذ جملي العجوز ..

وعتبت على عدالة السماء التي لم تعد للجمال جنتها ، التي تزخر بالنياق الساحرة ، فهي مخلوقات وفية وصبورة ونافعة ، فاذا شاخ احدها تنكرنا لعشرة العمر معه واكلناه ، نحن البشر التي تشفط بطوننا كل شيء ولا تشبع ، وفي اخر المطاف .. يخلد رجل مثلي في الجنة، ويكون مصير الجمل الفناء.. سالت بعض من صادفتهم عن هواجسي تلك، فلم يسعفني احد بجواب ، فلذت بالصمت قانعا بما اتاني الله من فضله ، وغفر لي تلك الذنوب التي تقصم الظهر. ولست ادري ما الخير العظيم الذي شفع لي فنلت به كل هذا الغفران، وعلى أي حال فقد غمرتني البهجة حين اسلمني الملكان الى حورية شقراء فارعة القوام لها شعر مثل شلال ذهب ينسدل على اردافها و بشرة بضة مثل بشرة الاطفال وعينان خضراوان تشعان طفولة وانوثة في ان ، وبالجملة هي ممن قيل في جمالها لاعين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب.. يا لله وانا الذي كانت غاية الجمال عندي؛ امرأتي ليلة عرسنا، والذي فقدته في اليوم التالي.. اشارت بأصبعها الي فتبعتها الى مخدعها مستسلما للذة تأملها.. أنا البدوي المحارب الجلف الغليظ، صرت بين يديها ناعما مثل يمامة وهي تضجعني في اناء ابيض وتغسل جسدي بماء دافئ، جسدي الذي ما كان يعرف الماء الا نادرا، وفيما كانت تدلكني برفق .. شعرت بنعومة كفها وتذكرت كف امرأتي ، الذي اكاد اقسم الان، انه كان من ليف النخل .. وبعد ان فرغت البستني حلة من حرير ابيض واقتادتني الى واحد من تلك السرر العجيبة التي تظل تموج تحتك بقدرة قادر حتى تمنحك الوضع الاكثر راحة

وهناءً، ثم ألقت علي شرشفا مخمليا ناعما وهمت بالذهاب لشانها، فاستوقفتها نظرة توسل تقول(أهذا كل شيء يا ملاكي؟)اشارت بأصبعها وهي تبتسم ابتسامة ساحرة ، وقد فهمت مغزى نظرتي ، ان اسكت ونم قليلا.. واطعتها كما لم أطع أمي من قبل ، ونمت بعمق.. أنا الذي كنت اغفو بعين واحدة مثل كل الغزاة وجوابي القفار، نمت مثل طفل .. وحين صحوت شملت المكان بنظرة فاحصة فاذا هو حجرة من حجرات الجنة تعبق برائحة الخزامى ، ولها نافذة واسعة تطل على جنائن خضراء ساحرة تجوبها حورياتي الاثنتان والسبعون ، المكرسات للإسعادي ، كالفراشات وتيقنت انهن كن بانتظار اشارة واحدة مني؛ كي يهرعن إلي.. ولم أكذب خبرا، فلوحت لاحداهن فسارعت بالحضور و جلست الى جواري على حافة السرير وامسكت بيدي لحظات.. ثم سرعان ما سحبتها وقد فغر فمها الياقوتي دهشة واتسعت عيناها الزمرديتان رعبا وانصرفت على عجل ثم عادت رفقة ملاك اشقر ذو عينين زرقاوين ، وقد عرفت على الفور انه احد الولدان المخلدين. جاء يضع نفسه في خدمتي ، اذ امسك بمعصمي وحدق بعيني صامتا.. فقلت له لا حاجة لي بك اذهب انت ودعني مع حوريتي. وبدا لي انه لم يفهم كلمة مما قلت اذ تناول عقال الناقة الذي على عاتقه ودس طرفين منه بأذنيه ، ليتجنب سماع لغتي الدنيوية الغريبة على سمعه. ثم جس صدري وصفن كأنه يتلقى أمرا من جهة عليا قبل ان يقلب شفته مستاءً ويولي مهرولا ليعود سريعا مع ولدان اخرون .. اضجعوني على محفة، طافت بي برهة من الوقت ثم استقرت في حجرة واسعة ذات

نور ساطع.. وتناوشتني اكف كثيرة، وخزا ولكزا ودلكا.. ووضع احدهم على فمي لثاما مثل عليقة الفرس، الا انه ينفث نسيما عليلا، اين منه لثام كوفيتي الخانق برائحة العرق والغبار، لا رده الله. واظن انني هذيت قليلا بأشياء لم اعد اذكرها فيما كانوا مشغولين بي وحدي ، وكأن العالم الاخر ليس به أحد غيري، وكل شيء في هذا القصر العظيم خلق لأجلي .. يا للسماء ما الذي فعلته في حياتي الدنيا لاستحق عليه كل هذا الدلال الذي لم احظ به من أمي ذاتها.. آه حقا! اين هي امي؟ تلك المرأة الطيبة التي لم تؤذ نملة في حياتها التي قدر لها ان تمضيها مع العلل؟ أليست هي احق مني بهذا النعيم المقيم؟ رحماك يا رب، ارحمها..لا ادري متى انقطعت سلسلة هذياني تلك فقد غفوت او أغمي علي ولست أدري حين صحوت كم مضى علي من الوقت وانا على تلك الحال .. ثم لم اهتم وقد فتحت عيني على ابتسامة ساحرة؟ أنا الذي كنت أنام على مصيبة وأصحو على كارثة.

تركتني تلك الابتسامة برهة، مسجى على سرير تتدلى منه خيوط ليست من شعر أو وبر أو صوف ،تلف حول صدري العاري، ثم عادت بصحن مرق لم اذق بحياتي الذ منه ولا أشهى، وقد دعوت المؤمن المتكئ أمامي للطعام، فلم يلتفت لدعوتي، وقد بدا لي انه أصم أبكم ، إذ اكتفى بابتسامة بلهاء وواصل التحديق بمرآته الصغيرة التي لم يكن يمل من التمري بها ليلا ونهارا، يبتسم تارة ويتجهم اخرى، ويرطن أحيانا بلغة عجيبة أحسب انها لغة أهل الآخرة التي سأتقنها فيما بعد حتما.. وأتيت على طعامي ولحست

الصحن تماما، فيما كان جاري المؤمن غارقا في نوبة ضحك مكتوم.. بت متيقنا انني العاقل الوحيد بين هؤلاء المؤمنين المجانين، فقد كانوا يتحدثون مع انفسهم و يجادلون ارواحا واشباحا لا يشعر بوجودها سواهم، يعلق بعضهم في أذنيه أقراطا طويلة عجيبة ويضع البعض الآخر على رأسه مثل لجام الفرس، وهم بين هذا وذاك مسرورون قانعون بعقولهم .. وتذكرت ان ليس على المجنون حرج، بيد انني عجبت لعدم استعادتهم لعقولهم في الآخرة.. ثم ادركت ان الانسان هنا لا يحتاج الى العقل اصلا. وقد شاركني حجرتي الفسيحة هذه ثلاثة منهم، وكنا اخوانا على سرر متقابلين، وهم وديعون طيبون لم أر منهم ما يسوؤني الا بربرتهم التي لا أفقه منها كلمة، وكنت أحسبها أول الأمر من تهليل وتسبيح أهل الجنة ثم أدركت فيما بعد انها من فعل جنونهم، والعياذ بالله، الذي لاشك ان مبعثه كثرة التحديق بالمرايا والتي سالتهم عنها كثيرا دون ان ا تلقى جوابا.. واخيرا بدا لي ان لاحدهم بقية من عقل إذ جاء وجلس الى جواري وأراني ما بيده؛ فاذا هي ليست بمرآة بل هي كوة صغيرة يطل منها صاحبها على عوالم ما أنزل الله بها من سلطان، حتى لقد كدت أجن كالآخرين من فرط ذهولي وقد أراني صاحبي قافلة فيها جمال صغيرة كالدمى او الحشرات تدب في الصحراء مثل القوافل التي الفتها في حياتي الفانية.. وقد مددت سبابتي إليها ولمستها مترددا وجلا فاذا بيني وبينها هذا الزجاج الشفيف وقد تلاشت في الحال كما ظهرت كان فمي فاغرا مثل كهف، وعيناي ناطتان من محجريهما

دهشة.. وسألته أيمكن أن يفتح لي هذه الكوة لأرى ما وراءها؟ فلم يفهم ما أردت واكتفى بالإشارة الى المؤمنين الآخرين بما يعني انني مجنون، فضحكا وضحكت، إذ انني ومنذ ذلك الحين لم أعد أميز المجنون من العاقل ولا أدري أيهما أكون .

في مساء ذلك اليوم جاء من يخبرني، بلغة أهل الدنيا، انني عائد الى الديار غدا صباحا.. فجن جنوني ومددت يدي الى موضع سيفي، استله كعادتنا في تلك الحياة اللعينة، ولشدة غضبي كدت أصفعه لولا ان تمالكت نفسي وقلت له :

- من تكون انت لتطردني من جنة كتبها الله لي؟

ثم غيرت لهجتي واستدركت متوسلا.

- الى أي ديار تريدون طردي أيها الغلام؟ لا والله لا ديار لي غير هذه الديار.. هل شكوت لكم شوقي لتلك الديار اللعينة؟ لأردها الله، ولا ردني إليها.. أنا لم اطلب العودة للحياة الدنيا لأعمل صالحا، فهذا شان اصحاب النار، اما أنا فقد غفر لي الله ما تقدم من ذنبي وما تأخر. فما شانكم انتم أيها السيد المبجل؟ ألا ترى يا سيدي ما أنا فيه من نعيم بفضل الله ومنه؟ ألا ترى قصري المنيف هذا.. وحوري العين وولداني المخلدين؟ أرجوك أيها السيد اخرج من قصري بسلام وانس كل ما قلته لي ولا تعود لمثله غفر الله لك. فقال:

- المشكلة انك تجاوزت الحدود.

- قلت؛ أنا اعرف حدود الله اكثر منك أيها الشاب الغر.. ثم ان الله غفر لي خطيئتي وتجاوز عن ذنبي. فما شانك انت؟

كتم الرجل ضحكة ولم يرد علي بكلمة وهم بالذهاب بيد انه استدار عند الباب وقال فيما يشبه الامر

-كن مستعدا ..موعدنا غدا ! في الصباح الباكر

ثم ابتسم واردف وهو يشير بسبابته الى فوق

- انه امر!

فهمت حينئذ انها مشيئة الله، ولا راد لمشيئته، فاستسلمت للحزن، وتضرعت الى الله باكيا ان يتم علي نعمته ويعتق رقبتي من الدنيا.. وان يمحقني، ان شاء، ولا يعيدني اليها.. وان كان لابد لي من عقاب، فليكن في جحيم الاخرة لا جحيم الدنيا التي عرفتها.

ذرفت الدموع غزيرة وامضيت ليلتي مسهدا اتقلب على جمر.. من أين خرج علي هذا الكائن الدنيوي المشؤوم؟ الم يكن كل شيء على ما يرام؟ فما الذي استجد لتنقلب الامور هكذا راسا على عقب؟

سهر معي اصدقائي المؤمنون الى الفجر لمواساتي وتحملوا لغوي الذي لم يفقهوا منه كلمة، واكتفوا بهز رؤوسهم واكتافهم علامة عجزهم عن فعل شيء لأجلي.

في الموعد المحدد، حضر الرجل الدنيوي المشؤوم وامرني ان اتبعه.. فاسقط في يدي وتبعته يائسا طائعا منكسرا وحف بي الملائكة مودعين، وحضرت الحوريات فعانقنني وقبلنني، وقلن كلاما حزينا كمن يؤبن مقبورا توا.. وعند باب القصر... آه... القصر الذي كان لي، وانا الامر الناهي الوحيد فيه.. عند الباب، تقدم مني جمع من الناس، بأيديهم هراوات سوداء قصيرة على اطرافها كرات مزركشة كادوا أن يدسوها في حلقي لانتزاع روحي.. وقد ضجوا

بمئة لسان، لم افهم منها شيئا ولم انبس بحرف، بيد انني استدرت لحورياتي الحزينات وحييتهن ووعدتهن ان اعمل صالحا واعود قريبا.. تلفت يمينا وشمالا، انظر الى دروب الجنة الفسيحة التي لم ارها مذ حللت بقصري، فاذا هي تأخذ بالألباب نظافة واتساعا، تحف بها الخضرة وتزينها الزهور وتمرق عبرها مخلوقات كالسهم سرعة، بعضها عملاق وبعضها قزم، ومنها مخلوق اكبر من الكلب قليلا يركبه المؤمنون للهو فينطلق بهم كالبرق، وله زئير كزئير الاسد. ورأيت كثيرا من المؤمنين والمؤمنات يحدقون بنوافذهم السحرية، يتحكمون بعوالم جعلهم الله عليها ملوكا يفعلون بها ما يشاؤون، ولا يفعلون إلا خيرا ..بعد برهة وقف بجانبي أحد زبانية عزرائيل، الذي قبض روحي في ذلك اليوم المشهود، فهو يشبهه، وقد حشرني الرجل الدنيوي المشؤوم في جوفه فانطلق بسرعة هائلة.. ورأيت العالم، من نافذة فيه، وقد انقلب رأسا على عقب.. اذ عصف بالأشياء عاصف جعلها تتطاير كالريش في مهب الريح.. ثم توقف بباب قصر منيف أدخلت فيه، فهالني ارتفاع سقفه الذي فاق علو مضافة شيخنا الف مرة. وانهمك الدنيوي المشؤوم وآخرين بكلام أحسب انني كنت محوره، ونشرت الصحف واملوا بها ما لا أفقه منه شيئا.. ثم ادخلت كهفا صقيلا نظيفا، حشر به كثيرون مثلي، وانتهينا الى حجرة بيضاء طولية على بابها بعض الحوريات اللائي الهبن حسرتي على ضياع نعيمي. وقد اجلس الناس هناك ووجوههم نحو محراب واحد، ولولا جلوسهم لظننتهم يهمون بصلاة الجماعة. اجلست بينهم في مقعد اخضر وثير وبدا لي ان الجميع كانوا

بانتظار قدومي لعمل شيء ما، اذ سرعان ما انطلق هدير يصم الاذان ثم زلزلت الارض زلزالها فابتهلت الى الله ان يلطف بنا .. فاذا هي قد سكنت وقرت وبعد وقت ممل امضيته مهصورا بين جليسي، تكرر ذاك الزلزال المخيف ثانية وكان هذه المرة اشد من سابقه، وكأننا القينا في هوة سحيقة، ثم شعرت وكأن المقام قد استقر بنا في قاعها العميق، وهدأ كل شيء ثم بدأ الحضور بمغادرة المكان.. وجاء من اصطحبني الى باب رأيت عليه حوريتان ابتسمتا لي، وكان ذلك اخر عهدي بالحوريات، اذ امرت ان اهبط سلما، لم اكن قد ارتقيته، فذكرت حزن أبي آدم وقد اهبط وزوجه من الجنة، فعجبت للأمر.. والاعجب منه؛ فعلهم بنا .. اذ ادخلنا تلك الحجرة الطويلة واخرجنا منها بعد زلزالين. و لا أجد لهذا كله تفسيرا، الا انهم ربما كانوا يختبرون ايماننا. لست ادري لقد شل تفكيري لهول ما رأيت، قبل أن اصحو على الحقيقة المرة كالعلقم وهي انني قد عدت الى الحياة الدنيا توا .. فها هو سمومها وغبارها وشمسها اللاهبة.. وها أنا اسمع مجددا لغتها المثقلة باللعنات، اذ انني ومنذ موتتي الاولى، لم اتلق اهانات على هذا النحو، فقد جرني نفر من قساة أهل الدنيا عنوة، واشبعوني تجريحا وسخرية.. وليتني لم اكن أفهم ما يقولون .. وما ان لامست قدماي الارض التفت لأرى شكل البناء الذي كنت فيه، فهالني ما رأيت ..كان ملاكا ابيضا جاثما بصمت وخشوع، باسطا جناحيه مثل اوزة عملاقة هبطت توا .. واحسب ان ريشة منه تعدل سبعون الف جناح من اجنحة النسور.. ورأيت الناس من حوله كالنمل، لهول منظره، وتيقنت انه نوع من

البراق عظيم.. اعده الله سبحانه وتعالى لنقل المخلوقات بين السماء والارض، في اخر الزمان.

حشرني القساة الجفاة الموكلون بإعادتي لجحيمي، في تابوت اغبر بين رجلين لا يقلان عنهم قسوة وجفاء.. ولا احسبهم الا من زبانية جهنم، لا يقص وجهيهما الفأس، سرعان ما رحت انقز بينهما، مع الارتجاج العنيف لهذا التابوت اللعين، الذي يطحن العظام.. وبعد وقت من العذاب حسبته دهرا، القوني في خيمتي المهلهلة الخاوية الا من قبر امراتي، تصفر الريح في اطنابها، حيث امضيت ليلتي الاولى في حياتي الدنيا الثانية ..اذ بكرت راحلا لا يحدوني غير أمل وحيد هو ان ألقى موتي مجددا واعود الى جنتي.

الشرفة الزجاجية الزرقاء

برهبة وجوده السري الغامض، خلف الزجاج الازرق لشرفة قصره، كان يبسط سطوته على رعاياه .. يرقب بلا كلل ادق حركاتهم وسكناتهم ، يسمع همساتهم بل افكارهم ، يتغلغل في احلام نومهم ويقظتهم ويعد عليهم الانفاس والخطوات . والحق انني كالآخرين، طالما شعرت بوخز نظرته الملكية في قفاي واقشعر بدني لمجرد تصور عينيه الشبحيتين تتعقباني حيثما ذهبت.. ولكم تملكني الشعور بالخزي الذي يحيق بمن كان بيته من زجاج.. فكيف بمن كان بيته وجلده وعقله من زجاج شفيف ؟

هواجس، كانت تبعث في كل المشاعر الانسانية الممكنة تجاه جلالته، الا الحب. بيد انني كالآخرين، كنت أردد النشيد الملكي تحت شرفته كل صباح، حين تصدح الحناجر بالحب والطاعة والولاء له ، وفي كل مرة كنت امثل ذلك بين الجموع .. كنت اختلس النظر الى شرفته، فاذا عيناه تحدقان في اعماق عيني، وتسبران اغوار روحي فتفضحان سري وتكشفان شكوكي، فأغمضهما بسرعة كمن يغلق نافذته على أسرار بيته ان تنتهكها عيون المتلصصين ، واشيح بوجهي جانبا ثم اندس وسط الحشد،

تتملكني رعدة عنيفة ويتفصد جبيني بعرق بارد، قبل ان اغيب عن الوعي ولا افيق الا وقد انفض الحشد عني.. وقد غدوت عاريا وحيدا تمطرني نظراته المفزعة بالاحتقار وتتوعدني بالقصاص .

لست ادري كم من الجمهور كان مثلي، منافقا رعديدا يتجرع الموت غصة اثر غصة .. وأيا كان الحال؛ لم يكن بوسعي الا ان اتعايش مع هذا الجحيم، كسائر افراد القطيع. حتى حل اليوم الذي قلبت فيه حكاية سليمان الملك حياتي راسا على عقب.. وامدتني بسؤال لم يكن ليخطر ببال الابالسة؛ ماذا لو كان جلالته قد مات منذ زمن بعيد ونحن مثل رعايا سليمان عاكفون على طاعته، نتوارث ترديد النشيد الملكي لجلالة الوهم القابع في رؤوسنا كل صباح، تحت شرفة خاوية لقصر مهجور؟ والذي عزز شكوكي انه كان متبتلا، لا زوجة له ولا وريث ولا وزير، فلا من ينقل لنا اخباره ولا من يحزنون.. يا للجحيم !! .

اويت تلك الليلة الى الفراش مبكرا على غير عادتي، تكورت مثل جنين ينعم بالأمن في رحم أمه وغفوت بعمق.. رأيتني خلف الاسوار المنيعة للقصر، اقتحم الابواب بيسر، حتى انتهيت الى صالة فسيحة خالية الا من سلم واسع طويل، راحت قدماي تنهبان درجاته المغبرة بإصرار، حتى بلغت باب الشرفة الزجاجية الزرقاء. وقبل ان تصل كفي لأكرته الذهبية، رايتها تدور بصرير يصم الاذان، كأنها لم تفتح منذ دهر ،ثم اندلع الباب الهائل، مشرعا على مصراعيه، كأن ريحا صرصرا عاتية اقتحمته والقت بي على قفاي.. وقد اعشى ضوء باهر الزرقة عيني، فاغمضتهما ودسست راسي بين ركبتي..

فتناهى الي صوته عميقا رهيبا، يسال بضعف ولوم كمن اسقط بيده لافتضاح امره :

لماذا ؟

قلت: لأني اردت ان اعرف.. اذ لا يعقل يا سيدي ان يستمر الأمر على هذا النحو المحبط والمذل الى ما لا نهاية.

قال: ألم يلقنوك الحقيقة؟

قلت: بلى يا سيدي كلهم فعل، بيد انني رأيت، وليتني لم أر، ان الحقيقة لا تلقن .

قال: وأنت ..اين ادلتك؟

قلت: ومن اكون يا سيدي لأدعي حكمة.. أنا لا أملك غير هذه.

فتحت قبضتي وعرضت عليه حجرا كان بها دون ان اغير جنينيتي.

قال: حسنا ! قدمه لهم !.

صحوت اتصبب عرقا وأشعر بوجع أصابعي، التي ما زالت متشنجة على الحجر، فيما كانت الريح تصفق باب غرفتي بعنف.. اذ انني أغفلت اغلاقه البارحة. هبطت الى الشارع.. انطلقت الى الميدان حيث كانت الجموع تهم بأداء النشيد الملكي أمام الشرفة الزرقاء .. وقفت امامهم حيث يراني الجميع وصوبت الحجر نحو الشرفة، بكل ما اوتيت من قوة، فأرعد الزجاج وهطل بزخات برد زرقاء، تتواثب على الارض ..شخصت الابصار نحو الشرفة، التي شوهدت لأول مرة، خاوية ، وقد اشرع بابها الداخلي على مصراعيه وبدت للعيان اكرته الذهبية المغبرة، تلمع بآثار اصابعي ...

يوم الرؤية

في البدء يكون الزغب.. ثم يصير الزغب ريشا، وحين يمتد الريش جناحين كبيرين مثل أجنحة الملائكة في الايقونات المقدسة، يحل حينئذ يوم الرؤية ،ولكل راشد من ذكر أو أنثى يوم رؤيته. وهو يوم لا يدانيه في الأهمية أي يوم من أيام الحياة.. فليس بين يومي الولادة والموت يوم يحظى بعظمته وقدسيته، وقد دعي بهذا الاسم لان كبار الاتقياء يختبرون الراشد الجديد؛ ما اذا كان قد بلغ من النضج ليرى ما يرون ام انه مازال في عداد القاصرين ؟اما الذي يراه فهو الحق الذي يراه الجميع.. أي تلك القضبان القزحية المشعة للناظرين، والتي تمتد من سمت السماء حتى تطبق على الافق كالقفص.

ذراعها لأرى طقوس ذلك اليوم، في حشد من النسوة يحتفين بفتاة بلغت رشدها. ولما صرت صبيا، ولم يعد من اللائق أن تصطحبني أمي معها، فبت أرافق أبي في حشود الاحتفاء بالفتيان.. اذ يحضر الفتى يوم رؤيته ويوجه الحكماء نظره صوب السماء ويؤمر برؤية القضبان القزحية المقدسة، التي طالما سمع بها وحضر أعيادها، فيشير اليها واحدا واحدا.. يتابعها من أعلى قبة السماء

الى الارض، يصف الوانها ويمجد روعتها ويدعو بدوامها نعمة تصون الوجود بداخلها من التبدد والضياع، ويحيى الناس بينها بأمن ودفء مثل قلب بين ضلوع . ويتم ذلك كله في جو روحاني مبهج، تفيض فيه دموع الحاضرين خشوعا، وتلهج الالسن بالتسبيح والتهليل.. حتى اذا اتم الفتى دائرة الافق، اضجعه نفر من الرجال الاشداء وفردوا جناحيه للنتف، فيتبرك كل رجل من الحشد بنزع ما تيسر له من الريش، والفتى يتلوى الما ويصبر ايمانا واحتسابا، فيما تطلق النسوة عن بعد زغاريدهن مع كل ريشة تنتزع. وفي ختام الطقوس يعمد كبير الاتقياء الى ربط طرفي جناحي الفتى الى قدميه بالرباط الابدي، قبل ان يحمله الاهل والاصدقاء في موكب مهيب ينتهي الى بيته.. حيث يقدم للمدعوين شراب قوس قزح وهو نبيذ عسل الملائكة.. وغني عن الذكر ان الراشدات يحظين بالطقوس ذاتها، في حشد من النسوة لا يحضره الرجال .

وفي عشية يوم رؤيتي، جلست على السطح المطل على باحة الدار اتابع أمي وهي تطوف في حركة ذائبة مثل نحلة، منهمكة في اعداد كل صغيرة وكبيرة لحفل الغد الذي طالما انتظرته، مثل سائر الامهات، يملؤها الزهو ببلوغ ابنها سن الرشد وحلول اسعد ايام حياته.. الامر الذي كان يهون عليها تعثرها بطرفي الجناحين المشدودين لقدميها فتكتفي بالتبسم لنفسها بمرح وسخرية، ذاهلة عن مراقبتي لها.. فيما كان أبي يذرع الفناء جيئة وذهابا، مطرقا بشرود، يخط بطرفي جناحيه الاشيبين على غبرة الارض خطين متوازيين مثل اثر زحف السلحفاة، وفي انحناءته تلك بدا اصلا جناحيه مثل حدبتين. كان أبي حزينا واجما، بخلاف أمي، لا يبدو

عليه الشعور بالفخر الذي يغمر الاباء عادة في هذه المناسبة العظيمة ..تذكرت مرة انه حاول استباق رشدي، فاصطحبني الى ظاهر البلدة وأمسك بسبابتي الصغيرة ووضعها في الافق قائلا: حاول يا بني أن تحدق بإمعان هناك ..أجل هناك تماما! فاذا رأيت القوس الملون، تابع الاقواس الاخرى الى يمينه وشماله.. حسنا؟

قلت: أين يا أبي ؟ أنا لا ارى شيئا مما تقول.

قال بنفاذ صبر: افتح عينيك جيدا !.انتبه اكثر!.

هناك .. هناك

كان ممسكا بسبابتي، يطوف بها في الفضاء الخالي، مصرا على انتزاع اعتراف مني برؤية ما يراه.. حتى شعرت بألم شديد فصحت: لا شيء يا أبي لا شيء غير انك ستكسر أصبعي.. أصبعي فقط.. ثم انتزعتها من كفه الخشنة، والدمع يفيض من عيني.. وضعت عيني بعينيه اليائستين وسالته: هل تراها انت يا أبي حقا ؟

قال بعد تردد واضح: الكل يراها إلا الأطفال والحمقى.. وانت ما زلت طفلا، فلا تبتأس، ستراها ذات يوم حين يحل يوم رؤيتك كالآخرين .. أنا فقط اردت اختبارك مبكرا لأنك اشد ذكاءً من اقرانك .

قبلني وربت على خدي.. وفي طريق العودة كان شاردا منكسرا، كما هو الآن عشية يوم رؤيتي. ولا ادري لم احسست آنذاك انه اصطحبني في تلك النزهة، لا ليريني ما يراه بل لأريه أنا ما ارى، اذ توقف بعد حين وجثى امامي ممسكا براسي بين يديه، وقال بحزن وقلق: اياك يا بني ان تقول انك لا ترى ما يراه الاخرون، والا عدوك

احمقا ونبذوك واحتقروك.. لقد دأبوا يا ولدي على رؤية ما يراه اسلافهم منذ مئات السنين.

كان ذلك قبل نحو عشرة اعوام.. اختمرت في وعيي خلالها رؤية اخرى، حتى تماديت وسالت أمي قبل قليل:

هل تعتقدين يا أماه ان اجنحتنا هذه نبتت لنربطها بأقدامنا فقط ونقبع في قفص وهمي يزعم الكل انهم يرونه وبفخر ، يدعو للشفقة، لا لشيء، الا لانهم يخشون ان يتهموا بالحمق والجنون ؟

ردت أمي حينئذ بصوت كله حنو واشفاق: اياك ان تقول ذلك امام أحد.. اياك يا حبيبي..

قلت مبتسما: حسنا يا أمي لا تقلقي ولكن اصدقيني القول.. بحياة جدتي الغالية الم تفكري بالأمر يوما؟

ردت؛ وقد كبلتها بقسم اعلم انها لا تقوى على تجاوزه: طيب ! بلى قد فعلت، ولكنني كنت طفلة لا أدرك عواقب الامور، حتى بصرتني جدتك بها فلم اعد لتلك الشكوك. هل ارتحت الآن ؟

هتفت وقد شعرت بالظفر: أها.. فانت أيضا لا ترين هذا القفص اللعين ؟

ردت بنفاذ صبر: يوه.. الكل يراه يا بني الكل يراه. .

قلت: مالنا وللآخرين يا أمي.. لا أنت ترينه ولا أبي ولا أنا.. فقط الكل يراه، لان لا أحد يراه.. ولا أحد يجرؤ على البوح، خشية أن ينبذ.. أو ... يقتل.

قالت: لكم أنت عنيد ..أتحسب انك وحدك على صواب وكل هؤلاء الناس على خطأ.. دعك من وجع الرأس يا بني، فحشر مع الناس عيد.. استعد ليومك في الغد يا عريس! كل عام وانت بخير.

قلت بأسى: وأنت بخير يا أمي.. وصعدت الى السطح، حيث أنا الان، تتناهبني الأفكار.. بعد ان بت على يقين ان لا احد في الحشد يرى ما يراه الحشد.. فاذا رأى ، فبعين الحشد لا بعينه هو .. هذه هي الحقيقة.. حقيقة نادرة مثل جوهرة بين حشد من الحصى.. وقد غدت بين يدي الآن، ولن أسمح لأحد ان يسلبني جوهرتي. لذا، عزمت على ان لا يكون يوم الرؤية هذا أبدا.. فتحت جناحي البكرين والقيت بنفسي معانقا الريح، ويا لدهشتي.. ها قدماي تفارقان الارض لأول مرة، وتتعلقان بالفضاء.. ها أنا احلق واعلو ببهجة لا توصف.. ارف حينا وازف حينا، حيث لا قضبان ملونة او سوداء، ومن ذلك العلو الشاهق ، القيت نظرة أخيرة الى المدينة، فهالني ما رأيت.. اذ انها لم تكن في الحقيقة غير مقبرة مترامية الاطراف، وليست بيوتها، ومن بينها بيتنا، إلا شواهد قبور عتيقة .

الغميضة

القت رأسها على الوسادة الناعمة الباردة، وفتحت نافذة الخيال على الغابة التي بات يلفها السكون الا من صرير الجنادب وحفيف اوراق الشجر بنسائم الربيع، تأرجحت مع قبلات الموج على خدود الشاطئ ودب النعاس في اوصالها واحست بان الوجود بأسره يغفو معها بهناء.. بانتظار ما ستفعله في الغد، فلقد سئمت ان يتقاذفها الآخرون مثل كرة ..

(سأريهم..)

همست لنفسها وهي تبتسم بتشف وتستسلم للرقاد على ريش افكارها المجنحة.

فراشات مبللة تنث ندى على شقائق النعمان بين الصخور، خرير ماء لا ينقطع يتخلله نشيج مكتوم على خلفية أصوات بعيدة تردد بحرقة وأسى :

(لولي.. لولي) تقترب الاصوات وتبعد(لولي !) ثم تنأى حتى تغيب تماما لتنبثق عبر زقزقة وهديل، حين يجف الحلم المبلل بأول اشعة الشمس، وهي تتسلل عبر النافذة لتداعب جفونها الساهمة، فتطرف قليلا قبل ان يتسع الكون الاخضر العميق بأسره..

تلقت قبلة الصباح من أمها مع احساس بوخز الضمير كاد يجعلها تبوح بما تخفيه، بيد انها تشاغلت بتناول فطورها على عجل ثم انطلقت الى جنينتها الصغيرة، مملكتها التي طالما لاذت بها مع اسرارها الصغيرة ، تبثها شجونها فخفت اليها طفلتها البيضاء، أوزتها المكتنزة بالنعومة والدفء، واعتنقتها بجناحيها فأسرت لها بما أخفته عن الدنيا كلها..

(مالي؟) سالتها(انا دون الاخرين لا أحسن الاختباء. مالي؟)

رددت بأسى.. لم تكن تدرك ان في اعماقها من الايثار ما يغمر الدنيا بأسرها.. لم يخطر ببالها ان لها وجدانا لا يلقي بالا لربح او خسارة قدر ما يشغله ان يمنح الاخرين ابتسامة رضا.. وجدانا يفعل بالضد من رغبتها الواعية بالفوز.. ففي الاغوار العميقة العصية على الفهم من نفسها، ثمة من يشي بمكان اختبائها ليمنح الآخرين نصرا جاهزا، ويمنحها لذة العطاء بلا حدود.. فتارة يفجر في حنجرتها سعالا يعينه عليها هذا الربو اللعين، وتارة يزل قدمها لتركل حجرا، فيما يبدو عفوا، وهو ليس كذلك، ليتدحرج فيبعث صوتا يدعوهم لمخبئها.. وأحيانا يدفعها لتأتي بحركة تكسر في يدها غصنا يابسا تكفي ضجته الصغيرة لكشف مكانها.. تتعدد الاسباب والنتيجة واحدة، وهي انها أول الخاسرين في كل مرة .. وفي كل مرة أيضا، لا يكفيهم ان تمنحهم نصرا زائفا، فيتمادون في السخرية منها وايذائها. الأمر الذي لم تعد تصبر عليه، رغم انها تطيق ألم الخسارة أكثر مما تطيق وجع الاشفاق على هزيمة الآخرين.. والحق انها لم تكن كأوزتها لتدرك ذلك كله.

مـر النهـار بطيئـا ثقـيلا، علـى غـير عادتـه، قبـل ان يحـين الوقـت المعلـوم للعـب.. انطلقـت هـي واخواتهـا ومـن في الجـوار مـن الاطفـال.. توغلوا بين اشجار الزيتون والسنديان.. مروا بعرائش الكروم.. عبروا معصرة الزيتون المهجورة، تواثبوا فوق صخور بيضاء وخضراء قاتمة على أديم أحمر، قبل ان يبلغوا فسحة من المكان ظليلة، تحف بها شجيرات الرمان والتفاح، وهناك انقسموا الى فريقين، بعد ضجة صغيرة وجدال مكرور، احتملت خلاله ولآخر مرة غلظة البعض وشغب البعض الآخر، قبل أن يفر فريقها مثل سرب قطا مذعور، ويتوارى بين الصخور وفوق الأشجار وخلف الأطلال العتيقة.. ولكنها انطلقت هذه المرة بطريق ملتوٍ كي لا يلحظها احد .. نزلت بخفة وهدوء الى جرف البحيرة ..انسلت في الماء الذي لسعها ببرودته لأول وهلة، ثم تعلقت بالصخور الناتئة.. ومن مخبئها المبتكر، راحت تصغي لتساقط فريقها واحدة تلو أخرى، حتى لم يبق منه سواها، هي بالذات التي اعتادوا أن تكون أول الخاسرين، ولم يعد بين الفريق الخصم واعلان الفوز إلا العثور عليها فجهدوا بالبحث عنها ولكن دون جدوى. وما لبث القلق ان وحد الفريقين، فصارا فريقا واحدا لاهم له سوى ايجادها سالمة ..لم يدعوا مخبأ في الجوار إلا ومروا به مرارا وتكرارا، حتى أعياهم البحث فاستسلموا للذعر وبدأت تتناهى لسمعها اصوات حلم الليلة البارحة.

(لولي.. لولي..)

تقترب تارة وتبعد أخرى.. وامعانا منها في مواصلة اللعبة الى النهاية كانت تأخذ نفسا عميقا وتغطس للحظات، كلما اقتربت

أصواتهم ، ريثما يبتعدون ثانية لتخرج رأسها وتشهق بعمق.. وفي احدى المرات كانوا على مقربة منها وسمعتهم بوضوح يبكون بحرقة، ويتوسلون اليها كي تظهر وقد صحت ضمائرهم الصغيرة فراح كل منهم يدلي باعترافه في محرابها، ويلقي باللوم على نفسه والآخرين، ويختم نواحه بوعد ان لا يكرر ما فعله من قبل.. وبعد ان فشلت كل السبل لم يعد في خلدهم غير الاحتمال الوحيد الذي كانوا يطردونه من خواطرهم، وهو انها قد غرقت في البحيرة، همهم احدهم(غرقت لولي)كرر آخر العبارة، فسرت بينهم كالنار في الهشيم .. تحول الهمس الى صراخ ولزهم الرعب فهتفوا بصوت واحد(غرقت لولي.. غرقت لولي)

ردد الحشد الصغير العبارة ذاتها، حتى قرت في أعماقهم حقيقة ماثلة. لا سبيل حينئذ أمامهم غير اللجوء للكبار، فهرعوا الى البيت.. وراحت اصواتهم تنأى ..ثم تناهى الى سمعها صوت اختها الكبرى:

(ماما.. غرقت لولي)

ارتمت بين ذراعي امها واجهشت بالبكاء وهي تولول..

(غرقت لولي يا أمي.. راحت لولي..)

وبعد لحظة ذهول تدحرج القلب النازف وفر يسبق الخطى الى حيث أشار الجميع.. تشظى كيانها وهي تنادي بلوعة

(بنتي حبيبتي.. لولي.. أين أنت يا ماما)

ورغم ان الصوت كان انينا مخنوقا، لا يكاد يسمع، إلا انه بلغ أعماق الصغيرة في مخبئها، شعرت بان اللعبة بلغت حدا لا يمكن

السكوت عليه.. نطت من مخبئها مثل فرخ اوز سمع نداء أمه.. هرعت اليها ودست جسدها المبلول الراجف تحت جناحيها الدافئين وراحت تنشج النشيج الذي تناهى لسمعها في الحلم، البارحة، والذي لم يفارقها منذ ذلك الحين..

حلم جلجامش

دخل متعجلا كعادته ، أدار ظهر الكرسي للطاولة واعتلاه مثل دراجة، ثم أسند كوعيه عليه وأرخى وجهه النحيل بين كفيه، محدقا بعيني مباشرة، سابرا أغوار صحتي التي لم تكن على ما يرام في الآونة الاخيرة.

قلت له: أنا بخير.

قال كأنه لم يسمعني : سمعت الخبر ؟

قلت: نعم .

قال: حسنا اذن.. قل لقلبك ان يصمد قليلا، ريثما يكون الحلم في متناولنا ، فبعد جلجامش كل شيء سيتغير.

قلت: ياه.. جلجامش.. أتدري ؟

هز راسه بالنفي دون ان يرد، ليدعني أواصل، يا له من مستمع رائع لولا عجلته هذه، ورغم انني أكبره بثلاثين عاما، طالما شعرت معه انني بحضرة رجل حكيم أسن مني

قلت: أعادني خبر اكتشاف حلم جلجامش الى آخر ليلة أمضيتها في الديار. كنت آنذاك في مثل سنك، اتدفق حيوية ومرحا وتفاؤلا، رغم الجحيم القدري لبلاد سومر الذي لزني للفرار

بعيدا.. وعشية رحيلي الذي صادف عيد ميلادي الثلاثين، في الثامن عشر من ايلول، اراد بعض الاصدقاء ان يخففوا وطأة الوداع عنا جميعا ، فعاملوني كطفل صغير، البسوني طربوشا مزركشا وزينوا سقف الغرفة بالبالونات الملونة ،اشعلوا في الكعكة بضع شمعات فتقمصت لهم حركات طفل مدلل واطفأت الشموع فانطلق التصفيق والغناء ودارت بيننا كؤوس العرق بيضاء مثل أجنحة الفراشات .. ثم هدأنا بعد حين إذ أشعل أحدهم جذوة نقاش، طالما شغلنا، عن ملحمة جلجامش وحلم الخلود الذي يشغل البشرية كلها.. فحلق فكري مع الحلم بعيدا ولم أعد أسمع أصواتهم وبدت الشفاه ترفرف خرساء في فضاء مفعم بالدخان ورائحة اليانسون، قبل أن تنث فيروز نداها، ويغور كل منا في أعماق روحه، متأرجحا مع صوتها الآسر.. صوتها الذي طالما كان ملهمي. في تلك اللحظة بالذات، ولدت قصة حلم جلجامش في مخيلتي فعزمت على كتابتها حالما أستقر في مهجري الجديد.. وعلى غير عادتي، سبق عنوان القصة متنها هذه المرة ، كنت أتردد كالبندول بين فيروز والقصة الجديدة، قبل أن أصحو على قرع أحدهم للكأس الذي كان عالقا بيدي الذاهلة عنه، نظرت إليه بعينين ذاويتين فانفجر ضاحك.

مرحبا بعودتك(قال ممازحا واردف)اين كنت يا رجل؟ كأسك معلق بيدك يشكو النسيان .

ضحكت، وضحك الجميع، وفتحت شهيتنا لسرد نكات ماجنة بالية، طالما سمعناها ولكن في سورة جنون الضحك هذه يغدو كل

شيء مضحكا، وأحسب انه كان ضحك الموجوعين الذي، يا ويلهم بعده، وهو ما حصل فعلا اذ سرعان ما خيم الصمت والوجوم على شلة المرح فجأة، وكادت العيون تمطر لولا ان سارع كل منهم الى الفرار قبل ان تنقلب الامسية الى نكد، صفقوا اكفهم بكفي دون مصافحة وقالوا(تصبح على خير) ليتجنبوا عبارات الوداع المؤلمة ويوهموا أنفسهم كأننا سنلتقي غدا.

ياه.. اسف يا صديقي. لقد تحدثت كثيرا.. شغلتك بذكريات بالية.

رد بكل صدق وعلى الفور: لالا بالعكس.. انا مستمتع بحديثك، واصل ارجوك ولا تنس انها لم تعد بالية، فقصتك بعد خبر اليوم غدت نبوءة.

قلت : شكرا لك يا يوسف.. أنا لا ادري ما حكاية هذا الاسم معي.. اعني يوسف، في تلك الليلة غادر الجميع إلا يوسف وانت الآن ، وحدك، معي .. كما كان هذا اسم صديق طفولتي ، ولاشك انني لوكنت تزوجت وانجبت لكان اسم ولدي يوسف لكنني لم افعل لحسن الحظ (ضحكنا وسرعان ما واصلت حكايتي مستغلا حسن استماعه..) ما علينا.. في الصباح الباكر، أوصلني يوسف للمطار، وهناك غسلنا بالدمع آخر الضحكات، وتجرعنا مرارة الوداع. وفي الطائرة، لذت من الاسى بالورقة والقلم، وشرعت بكتابة حلم جلجامش، ولم أتمها في تلك العجالة طبعا، ومنذ ذلك الحين لم أذكرها ثانية حتى سمعت بتحقق الحلم .

شعرت بأنني أفرغت شحنة، كانت متوترة، من الذكريات واسترخيت في السرير، وهو ينظر الي دون أن يغير جلسته طول الوقت، وأخرجت من جيبي ورقة ، أضفت عليها بضع كلمات ودفعتها إليه قائلا : :

هذا ملخص القصة، كتبته بعد ان بعث خبر الاكتشاف الجديد فكرتها في الذاكرة مجددا.. أرجو أن تنقحها وتتمها وتنشرها إذا رحلت.

بالكاد وصلت يدي بالورقة اليه، اذ شعرت بخدرها وبوخز مؤلم في الجانب الايسر من الصدر.. اعتصرني الالم، فأفلت القلم من يدي وتدحرج على حافة السرير ثم سقط تحته.. رفع رأسه نحوي، فرأيت الفزع بعينيه، وغبت عن الوعي قليلا، وحين أفقت مددت يدي أجوس تحت السرير.. فلمس كتفي برفق وقال :

لا تتحرك ! استرخ الآن تماما وقل لي عم تبحث . .

عجبت حين رأيته واقفا بجانب السرير، في هيأة اخرى .

قلت: قلمي الذي أفلت من يدي وتدحرج تحت منذ لحظات.

قال مبتسما: لحظات؟.. كل عام وأنت بخير.. قل أشهر.. لقد انقضت سنة ٢٠٥٦ونحن الآن في العام٢٠٥٧

الجمتني الدهشة، فلم أحر جوابا، فيما واصل حديثه العجيب بهدوء على غير عادته المتعجلة:

اولا ؛ لم تعد قصتك مجرد نبوءة، فلقد غدت واقعا معاشا منذ سبعة أشهر.. ثانيا ؛ أنت منذ أن وقع قلمك، كنت ميتا اثر ازمة قلبية، وبقيت تحت الاجهزة حتى توفر علاج جلجامش وحضر

الطبيب المختص. وثالثا ؛ ثمة أمر طريف سيحلو لك أن تفسره على نحو باراسايكولوجي وهو ان الطبيب الالماني الذي أجرى لك العملية اسمه يوسف.. واخيرا ؛ ها هي قصتك ردت اليك، فأنت من سيتمها وينشرها ويعقبها بما شاء من القصص، إذ انك سوف لن تموت كأسلافك إلا بعد أن تمل من الحياة وقصصها وتقدم طلبا لترحل ساعة تشاء.. هل سمعتني جيدا..؟ ساعة تشاء .

أينا الذي مات آنذاك؟

شوق موجع وحنين طاغ، أخذني في رحلة المستحيل، بحثا عنه. سافرت الى حيث تركنا بواكير العمر مبعثرة هناك تحت انقاض السنين.. وصلت الى القرية ظهرا ودخلتها بألفة دافئة، كأنني لم اخرج منها قبل خمسين عاما، بل صباح هذا اليوم وها أنا عائد الى البيت توا، على بعد خطوات من خبز أمي ، اجتازت قدماي الأزقة، لوحدها، فهي لا تدرك مرور نصف قرن، بل تألف المكان وتحفظه، لأنه ترابها الاول حيث بدأت وتعثرت، ثم لما اتقنت الجري، ضاعت، وها هي تهتدي الآن برائحة الصفصاف وهديل اليمام، الذي مازال يطرز بأساه؛ الظهيرة القائظة.. بلغت الزقاق الأخير، الذي يفضي الى شاطئ النهر، حيث الشريعة المرصوفة بالحجر الابيض، الذي ما زلت احفظ نتواءاته وشقوقه، وأعرف أي الدرجات فيها ثابتة وأيها قلقة تتحرك تحت قدمي المبللة العارية بقرقعة لامثيل لها في الوجود، فأعمد الى هزهزتها بمرح.. رأيت وجوه القرويات، اللائي أعرفهن واحدة واحدة، مبللة بالجرار التي تتوازن فوق الرؤوس بمشية راقصة، تبعث فيك من البهجة ما تعجز عنه بحيرة البجع.. تصفحت وجوه الاصحاب الطافية في الزرقة، ولوحت لهم هاتفا :

مرحى يا شباب.. هل رأى احدكم منعم؟

عجبا، لم يلتفت إلي أحد، ولم أتلق ردا، حتى الصبايا اللائي يعرفنني جيدا، مررن بي على عجل، دون أن يعرنني اهتماما، كررت هتافي :

أياد.. جمال.. جواد.. كريم.. يوسف !

كنت احدق بوجوههم، واحدا واحدا واصيح بهم دون جدوى رغم انني كنت أسمع صياحهم، بل حتى همساتهم بوضوح غريب، لا ينتمي لصدى الشواطئ الذي اعرفه، مثل صفاء عالم آخر غير هذا الملوث بالضجيج .. تذكرت الآن ان احدا ممن حييتهم في ازقة القرية، لم يرد عليَّ أيضا، قلت لعلني تغيرت كثيرا فلم يعد يعرفني أحد، وان لم يتغيروا هم أبدا.. ام تراني أنا من يراهم فقط وهم لا يرونني.. يا للّه.. لولا الكلب الذي نبحني من تحت أحد الأبواب، قبل قليل، والدجاجة التي فرت من بين قدمي، وأوشكت أن أدوسها لقلت انني شبح.. شجعتني الاستنتاج الأخير أن أسألهم مجددا، وبأعلى صوتي، ولكن لا رد ولا التفات، فقررت أن أبحث عنه بنفسي.. سرت في الجادة الضيقة التي عرتها الاقدام من العشب، بمحاذاة الشاطئ.. اجتزت سياج البستان المتوج بقطع الزجاج لتمنع تسوره من العابثين واللصوص اغلقت خلفي بابه الخشبي العتيق المرصع بالمسامير العريضة ، بعناية، كما اعتدت ان افعل دائما.. واقتادتني الجادة العارية الى حيث التينة الوارفة التي كانت تلقي ثمارها الناضجة للسمك، لتعذر الوصول اليها. ومررت بصف طويل من اشجار الصفصاف والرمان حتى انتهيت الى الناعور، الذي مازال حصانه المعصوب العينين يلف بدوامة لا تنتهي، فتدور الجرار المعدنية بصرير، مثل موال حزين مكرور، رافعة الماء الى الحوض المسور

بالآجر المطحلب، الذي طالما جلست على حافته الباردة، أتأمل رغوة الماء المسكوب على العشب ومنه يتسرب في السواقي، ليغدو في واحدة من عجائب الوجود، زهورا ملونة وثمارا الذ من الشهد.

تملكني فرح غامر وانا اقترب من معتكفه الذي سواه بيديه مثل عش، بين شجيرات الرمان على حافة النهر، واتخذه ملاذا يقرأ فيه ويلهو بأشياء لا تلقى اهتمام سواه.. تلك الاشياء التي مثلت ارهاصات شغفه بالفيزياء وتخصصه بها فيما بعد.. الشغف الذي لم تمهله الحرب لممارسته .. ومن فرجة بين اغصان متشابكة، لمحت قفاه، اذ كان موليا وجهه شطر النهر، حيث كانت الشمس تميل الى الغروب، خلف أفق زمردي من حقول السوس.. آثرت أن لا أقطع عليه خلوته، فجلست بهدوء أتأمله.. يا لله.. لم تذهب رحلتي سدى.. ها هو أخيرا، بشعره الأسود الناعم الكثيف الذي اعتاد ان يزيح بأصابعه خصلاته الطويلة عن عينيه.. كان منهمكا بشيء ما بين يديه، اقتربت اكثر لأختلس نظرة من فوق كتفه، فرأيت مصباحه الزجاجي الذي نزع عنقه المعدني، وملاه ماءا واتخذه مكبرة، استعدت شعوري بالدهشة حين عرضه علي هنا أول مرة.. وكما كان يفعل من قبل، وضعه فوق ورقة صفصاف وراح يحدق بعروقها ويرسمها على هامش كتابه، ثم مرر المصباح على السطور ببطئ لتتكور الكلمات على الزجاج، كبيرة موشاة بلون برتقالي، ثم توقف عند عبارة (من هنا امتحان إلى ص٥٠) بدت العبارة أليفة ومقلقة كما لو ان المعلم املاها علينا اليوم .. طال وقوفي خلفه دون أن يشعر بي، فتنحنحت لألفت انتباهه، رفع رأسه عن الكتاب ووضع المصباح بعناية جانبا ثم تلفت حوله وعدل من جلسته ، ثم ما لبث

ان عـاد لكرتـه البلوريـة، غـير مكـترث لوجـودي.. سـرت في جسـدي قشعريرة باردة وهتفت به بصوت يرتجف رعبا.

-هي.. ما بالك !.. منعم.. ألا تراني ؟

تململ ثانيـة ثـم نهـض يـنفض سـرواله.. تـأبط كتابـه ورفـع المصباح أمام عينيه، متأملا الشمس الغارية بالمقلوب، وقفت امامه وحـدقت بعينيـه الواسـعتين السـوداوين الحنـونتين برموشـهما الطويلة.. هتفت به وقد فاضت دموعي :

-يا إلهي.. لكم اشتقت اليك. .

وضع عينيه بعيني للحظة.. تنهد بعمق قبل ان يفرغ مصباحه مـن المـاء والشـمس وعـيني، ويدسـه في جيبـه، وقـد هـم بالرحيـل.. فقفزت أمامه لأحول بينه وبين وجهته، بيد انه تجاوز الشبح القادم مـن المسـتقبل البعيـد.. ركضـت خلفـه.. صـرخت .. بكيـت.. توسلت إليه ألا يتركني لكنه توارى تماما..

عـدت يعتصـرني شـعور ممـض بالخيبـة والانكسـار.. ووجـع لا يطاق.. مررت ببقايا ناعور سقطت جراره المتآكلة بالصدأ، وتعثرت بملامح حوض تحت الحلفاء المغبرة، ثم جزت بأطلال سياج تناثرت حجارته.. وحين اتكأت على احداها لأمر جرحت يدي زجاجة ناتئة فيها، كانت في الماضي تمنع اللصوص من تسورها، ولم تعد تفعل.. ثم انتهيت الى شريعة مهجورة غاب سلمها الحجري تحت أكوام النفايات، بعد أن غار عنها الماء يحتضر وسط النهر الذي هجرته الضحكات، فبدا موحشا مثل روحي التي لم تعد تعرف يا صديقي أينا الذي مات آنذاك....

رهان الاله الضفدع

أبلغني الطبيب، بعد تردد، بالحقيقة الصادمة وهي؛ اني ميت لامحالة، في غضون بضعة أشهر. ولا سبيل أمامي غير عملية جراحية، لا تزيد نسبة نجاحها عن خمسة بالمئة.. ودعته، وخرجت عازما على انجاز كل متعلقات الرحيل الأبدي، غير اسف على حياة أمضيتها مع العلل الموروثة، لولا غصة ما سأخلفه في قلوب الأحبة من وجع.. كان صديقي يسير إلى جواري مطرقا واجما أكثر حزنا مني، حتى انني أوشكت أن أواسيه مزاحا، قبل ان يقول بصوت متهدج يغالبه التأثر:

-هل ستجري العملية؟

- ما رأيك أنت؟ هل تستحق العناء؟

- نعم ، وليتك تفعلها، بشرط .

-ما هو ؟

-أن تؤمن بالإله الضفدع القدير، وتبتهل إليه كي يشفيك، لأنك يا صديقي توشك على مواجهة الحقيقة المطلقة.

ابتسمت، قبل ان أرد بعد تأمل فيما قال:

-حسنا ، سأفعلها واخذ بنصيحتك الطيبة المشفقة ولكن بشرط أيضا.

قال وقد انبسطت أساريره: ما هو؟

قلت: ان يقتلني، مستعينا بالنسبة العظمى لفشل العملية، هذه فرصة لا يحلم بها إله غير قدير، فضلا عن إله قدير كإلهك الضفدع ، وحينئذ سأجثو أمامه وأتضرع إليه ان يثيبني، اذ راهنت عليه بحياتي، الأمر الذي لا يجرؤ أكثر أتباعه إيمانا، أن يفعله.. وسأخبره انني لست معاندا، إلا ان الادلة لم تكن كافية بالنسبة لي.. فاذا كان الخلل في عقلي، فهو من خلقه.. وإذا كان الخلل في الأدلة، فهي أدلته .. حينئذ أكون قد فعلت ما عليَّ، ولا يهمني اذا ما قرر أن يلقيني، ظلما، في مستنقعه السماوي، نهبا للضفادع المقدسة، حيث لا أموت في بطونها ولا أحيا .

كان صديقي مصغيا باهتمام وحيرة معا.. ولما شعر ان كلامي قد بلغ غايته، أوشك أن يسأل فقطعت عليه الطريق واردفت:

- أما إذا هزمته، أنا والأطباء، بالنسبة الضئيلة التي لنا، ونجوت.. فلا لوم عليَّ حينئذ. بل عليك أنت يا صديقي ان تنبذ ضفدعا عاجزا لا يستحق العبادة، وتتحرر من الرعب والوهم.. ما رأيك ؟ أليس شرطا عادلا واختبارا يسيرا، تميل كفته لصالحه؟

- صمت برهة قبل ان يرد بصوت كله اسف وأسى:

- لا جدوى اذن .. انت تجعل الامر اصعب علينا، في هذا الرهان الخاسر.

- قلت : لا تهتم !.. بالنسبة لي، ليس عندي ما أخسره، أما أنت؛ فسينتهي الأمر معك بإحدى الحسنيين؛ أما أن تفقد صديقا وتكسب عوضا عنه ثباتا على الايمان واطمئنانا وسلاما ... أو تكسب صديقا وتفقد وهما كنت تحسبه حقيقة.. أما ترى الجانب المشرق من الرهان يا صديقي.. والحق انني أفضل أن أنجو ليس رغبة في الحياة وحسب، بل لانتزع من عقلك هذا الوهم، الذي لا يقل فتكا عن المرض العضال الذي ألمَّ بي.

- همهم صديقي بصوت يشبه النقيق، احسبه صلاته.. ثم طال بعد ذلك صمتنا، حتى بلغنا باب داره، فدعاني الى الدخول فشكرته واعتذرت. وفيما كان يهم بفتح الباب استدار الي وقال باسطا كفيه باستسلام:

- حسنا ! كما تشاء.. اتفقنا.

- لقد ورث صديقي، طيب القلب هذا ، ايمانه بالإله الضفدع عن آباءه وأجداده.. كما ورث صفاته الجسدية عنهم ولكم حاولت ان انتشله من هذا الارث الضار، ودخلت معه في جدل ممل، دون جدوى، حتى أدركت عبث المحاولة، لأنني كنت اعالج الجزء الخطأ منه، وهو عقله، في حين ان جرثومة الايمان مكانها القلب، وان انتزاعها بالمنطق، لا يقل عبثية عن انتزاع الصفات النفسية بالمشرط ... وغني عن الذكر، ان الجدل بيننا مهما كان مريرا وعقيما ومملا، لم يكن ليحول دون استمرار صداقتنا دافئة.. عميقة.. وصادقة.

في الايام التالية، فرغت من كل الاجراءات والتبعات واجريت الفحوصات اللازمة، وحدد الطبيب موعد العملية فأبلغت به صديقي، الذي حضر وكان الوحيد الذي ودعني بباب صالة العمليات، وقال وهو ممسك بيدي بحنو:

-أما زلت مصرا على رهانك يا صديقي العزيز؟

قلت متصنعا المرح: السنا متفقين ؟

قال يائسا، يغالب دمعة تترقرق و توشك ان تنهمر: كما تشاء.. استودعك الاله الضفدع القدير..

قلت ساخرا: شكرا لك يا صديقي.. أنت تودعني بيد غريمي اذن. هه ..(واردفت) أنا اعلم ما قد لا تعلمه أنت عن نفسك وهو انك تفضلني على ربك هذا وتتمنى ان اهزمه، في هذه المنازلة فيموت هو، وأخرج أنا منها حيا .

ومع جملتي الأخيرة عض شفته دون أن يرد وفاضت الدموع من عينيه ثم أغلق الباب بيننا.

في الصالة.. تحلقت حولي وجوه ملائكية تحاول بكل ما أوتيت من علم، ان تصلح ما أفسده الضفدع.. كنت أسري عن نفسي بهذا الحوار الداخلي الساخر.. وتبينت من بين الوجوه وجه طبيبي العجوز الذي نفحني ابتسامة مطمئنة وربت على كتفي، فيما شعرت بإحداهن تضع شريطا ما حول كاحل قدمي، وبلمسة كفها شملني سلام لم آلفه طوال حياتي المترهبة. ثم غامت الدنيا من حولي لحظة، أعقبها اندلاع نور أبيض باهر شمل كل شيء، حتى وجه صديقي وهو يحدق بي بمزيج من فرح ودهشة طفل، ثم افلتت

منه الهمهمة النقيقية ذاتها، لكنه كتمها بسرعة واحمرت وجنتاه خجلا من الهزيمة المنكرة التي مني بها الضفدع.. ابتسمت له وقلت في سري امل ان تكون تجربتي قد ألقت حجرا في مستنقعك الراكد الا من صخب النقيق .

قاع الجحيم

على وشل طوفان قديم تشبثت لجحه الأخيرة بالبقاء، تطفو اكواخ شاحبة، مثل وجوه ساكنيها، فوق جزر القصب والبردي، تكاد تتبدد لولا، الحب والموت والبعوض وهذه العفونة الوغرة، التي تشدها لبعضها.. ولا يدفع عنها شبح الانقراض الذي ذهب بالأسلاف، إلا الشهوة المبكرة للفتيان والصبايا التي تمدها بمزيد من التعساء. هذا القارب، الذي يشق به جودة سكون الهور كل صباح صوب البلدة الصغيرة، هو بمثابة آلة الزمن التي تتردد كل يوم عبر سبعة آلاف من السنين، هي الفجوة بين كوخه والمدينة.. ليقايض بضعة أسماك وبطة أو اثنتين بقوت عياله، وتوافه لعل أثمنها الشاي والسكر والتبغ ودواء السعال اللعين، الذي أدمن شربه كل ليلة قبل أن ينكفئ لينام.. عمر مسماري مطلسم على رقيم طيني يتقلب في البؤس ذات اليمين وذات الشمال، قبل أن يستقر في القاع ليتبدد.

عالم هو الدرك الأسفل من الجحيم بعينه، منسي إلا من الدجالين الذين يمرون به في موسم طيني معلوم كل عام، مرور غيمة بعوض جهنمية تمتص الدماء بلا رحمة ، اذ تطوف انوفهم

بأفواههم الشرهة ، يتعقبون رائحة الشواء من كوخ الى كوخ، حتى يأتون على بقايا احلام الجياع ويتركونها بلقعا، إلا من وهم بعمر آخر غير هذا المقلب.

كانت آخر رحلة لصاحبنا سيئة الطالع من أولها، إذ بدأت بثقب في الزورق أصبح ينز ماءا فتأخر بإصلاحه ولم يصل السوق إلا بعد فوات الأوان، وبالكاد أفلح ببيع سمكة واحدة اشترى بثمنها علبتي التبغ والدواء وتسكع في دروب المدينة التي مازالت منذ الطفولة تدهشه، ثم رجع الى زورقه وانطلق عائدا.. ولما أشرف على جزيرة بؤسه، زاده تطيرا رؤية كائن مشؤوم عرف فيه بواكير غيمة البعوض العملاق، الذي أزف موسمه، كان مجللا بالسواد من العمامة الى المداس ، تنفتح جبته عن سروال وقميص أبيضين، هيأة بدا فيها مع وقفته المتعالية تلك، مثل ذكر البطريق الامبراطور.. تكاد عيناه تنطان من محجريهما لرؤية السمكة التي عادت من السوق مدلاة بيد الخيبة ..

ألقى جودة بالسمكة الى زوجته لتعدها للعشاء، فهرعت بها الى الضفة تشقها وتنظفها قبل ان تشعل الحطب للشواء.. في تلك الاثناء سلم جودة على ضيفه رجل الطين الثقيل، وجلس بين يديه يتلقى عظاته المكرورة المملة، بالحذلقة والتذاكي والخنة المقرفة.. وكان جل حديثة عن فضيلة اكرام الضيف..(كيف لا ؟ وهو الضيف الآن.. لوكان المضيف، لذهب الحديث لفضيلة؛ من زار وخفف.). فكر جودة وهو يخفي ابتسامة ساخرة.. فيما اسهب ضيف الشؤم بالتهديد بالويل والثبور وعظائم الامور وصنوف عذاب لا

تخطر ببال الابالسة انفسهم..(عذاب ينتظرني هناك اذن! ألا يكفي كل هذا العذاب؟) تساءل جودة في سره مستنكرا، هازا رأسه المطرق لتلقي صفعات العظات وهو يرضع سجائره، بتوتر، الواحدة من الاخرى.. ويرشف دواء السعال على مهل كمن يشرب من زجاجة نبيذ معتق نادرة.. وفجأة هب الشيخ واقفا يلملم أذيال جبته، مستأذنا لقضاء حاجته.. انتعل مداسه على عجل .. ركل الزجاجة الثمينة.. تدحرجت على الفور وغابت في الماء. وفيما انطلق الشيخ الى شأنه غير عابئ بما فعل ، نطت عينا جودة من محجريهما وصارتا في هامته من الحنق.. وهرع الى الماء يلاحقها ..خاض في الماء بيديه ورجليه في بحث محموم دون جدوى. لقد ضاعت جوهرته ولم يشرب منها بعد إلا القليل.. خرج يقطر غيظا وماءا.. فيما عاد الشيخ الى جلسته كأن شيئا لم يكن.. غير ملتفت لكتلة الغضب التي تكاد تنفجر بجانبه. وضعت المرأة السمكة والخبز بين الرجلين، الصياد البائس الملطخ بالطين من رأسه الى قدميه، تقدح عيناه شررا ويثب صدره بأنفاس متلاحقة، منشغلا بمقاومة بركانه الثائر عن لذة الطعام، من جهة.. والشيخ المشؤوم الشره الذي انقض على السمكة يلتهمها على عجل دون ان يتوقف عن اللغو، من جهة أخرى.. تتناثر من فمه الواسع مع فتات الطعام سلاسل وسياط وثعابين وخوازيق.. والاطفال يرمقونه بفزع ويتضورون جوعا، وقد لاذوا بأذيال أمهم البالية مثل كتاكيت مرعوبة.. رمقهم أبوهم بنظرة أسى ورمق الشيخ بنظرة غيظ وراح يلملم أطراف المشهد المجنون بجمر عينيه، وبدأت بوادر الانفجار.

(اتقول ان جحيما آخر ينتظرنا بعد هذا الجحيم.. انظر اليهم يا بن الكلب.. أهؤلاء حطب جهنم أم أنت) الجمت المفاجأة الشيخ وجمدت اللقمة الاخيرة في كهف فمه، قبل أن ينقض عليه جودة وينشب أصابعه الخشنة في عنقه.. دافع الشيخ عن نفسه بضراوة وامسك بتلابيب الصياد وجذبه إليه بعنف فتدحرجا على البردي وسقطا في الماء ممسكين بخناق بعضهما بعناد جنوني.. حتى غابا في الماء وطال غيابهما حتى صفى عليهما وانقطعت عن سمعهما آخر صيحات المرأة المفجوعة والأيتام المرعوبين .

القسم

بعد طول عناء بالبحث عن عمل، وجده لي أخيرا أحد الأصدقاء. وها هو الآن يصحبني الى رب العمل حسب موعد مسبق معه.. دخلنا مكتبه.. كان أربعينيا مربوعا حنطي البشرة ذو لحية محددة بدقة ومشذبة بعناية يتخللها شيب يسير، وقد بسط على منكبيه وشاحا أخضر مطرز بآيات مذهبة، علامة نسبه الشريف.. تلهج شفتاه بلا انقطاع بالصلوات مع كل حبة من مسبحته السوداء الطويلة ،حتى انه بالكاد تمكن من رد تحيتنا باقتضاب، دون ان يكلف نفسه عناء النهوض، رغم ان كلينا أكبر منه سنا.. بادر صاحبي بالحديث على عجل وقدمنا لبعضنا:

- هذا صديقي الذي حدثتكم عنه يا مولانا.
- صاحبي الذي عرفته جريئا، بدا لي محرجا خجولا، يحدث رب العمل المتعالي بلهجة مغرقة بالتذلل ثم اردف:
- وهو مستعد للعمل عندكم، بشروطكم.
- أوشكت ان اقاطع اسلوبه المهين، قبل أن يرد رب العمل بسرعة:
- ليس عندي كما تعلم غير شرط واحد.

- التفت الي وكأنه يراني لأول مرة. وأضاف ليقطع علي السؤال :

- أن تضع يدك على المصحف الكريم، وتقسم أن تصون الامانة، ولا تمد يدك للحرام.. هذا كل شيء.

- وأضاف: احسبه شرطا سهلا.. أليس كذلك؟

- قلت: سهل جدا، ولكنني لا افعله رغم حاجتي الماسة للعمل.

- انبسطت أسارير الرجل لأول مرة، فقد كان متجهما طول الوقت.. وقال مبتهجا:

- ما شاء الله.. ألهذه الدرجة تجل المصحف وتعظم القسم به؟ لن نختلف اذن.. ربما فقط أن تطلق هذه اللحية الحليقة فيما بعد لتغدو كريمة تناسب تقواك. وقال جملته الاخيرة بابتسامة رضا عريضة، لا تناسب هيأته وملامحه، والحق انها ما لبثت ان تبددت بعد ان رددت عليه

- لكنني لم أرفض القسم للأسباب التي ذكرت.. بل ليقيني ان من يسرق، لا يتورع عن الكذب، فكيف تمنحه ثقتك بمجرد ان يقسم؟

انتفخت أوداج الرجل مثل ضفدع يوشك أن يطلق نقيقه.. واحتقن وجهه بسحابة سوداء من الغيظ.. وانقبضت الأسارير التي كانت منبسطة قبل قليل.. لعله سمع جرأة لم يألفها، بعثرت كرامته، فتلفت يلملمها وخرج من أعماقه صوت غريب كالفحيح:

- أها.. هكذا اذن.. لم لا تقسم حضرتك قلت لي؟

- أرجوك يا سيدي بلا سخرية.. ولاحظ انني احترمك فبادلني الاحترام.. نعم.. كما قلت لك.. القسم لا يردع لصا ولو كان الأمر بهذه السهولة لغدت حياتنا جنة.. ثم ألا تعلم ان السرقة شرعا أعظم جرما من الحنث باليمين الذي يكفي صوم ثلاثة أيام لمحوه.. أليس هذا ما ترون؟

- نرى؟.. مَنْ تعني ؟

- أعني المتدينين.. فهذه حدود الدين.

- سبحان الله !... وتعرف الحدود ايضا ؟

- وهنا تدخل صاحبي وقد شعر بان الحديث بيننا بدأ يأخذ منحى لا يبشر بخير:

- وحدوا الله يا جماعة وصلوا على النبي.. سيدنا !.. الرجل من الامانة بحيث لا يحتاج ليمين وهو بضمانتي .

ثم التفت إلي مستاءا وقد نفذ صبره:

- وانت يا صاحبي! ماضرك لو أقسمت له واستلمت العمل فورا ، ألم تقل انك بحاجة له؟

قلت متعجبا من رأيه: هكذا ببساطة اذن.؟. عجيب أمركم.. لا باس عندك ان أخدع الرجل وأمثل عليه دور التقي الورع من أول لقاء.. اذا كان هو لا يعرف عني شيئا فأنا أعرف عني كل شيء، ولا يسعني ان أبدي له خلاف ما أنا عليه وإلا لن أحترم نفسي حينئذ. وهذا ما لا يناسبني البته.. أما أن يقبلني كما أنا أو لا.

كادت كف السيد تسقط من يدي، لجمودها وبرودتها، وهو يصافحني مرغما، وأحسب انه هرع الى الحمام يشطفها، بعد خروجنا من مكتبه..

قلب أبيض بجناحين

كنت أجلس عند نافذتي المطلة من الطابق الخامس على بحر مرمرة. أصغي لزعيق النوارس وأشم رائحة البحر وأسمع هدير تكسر موجه الأزلي على صخور الشاطئ.. شعرت بحنين طاغ لا أدري لمن.. الأمر الذي بعث في أغنية فيروز(أنا عندي حنين..ما بعرف لمين) وبرغم أسى الأغنية ، كنت مبتهجا وشعرت بحاجة ملحة لقلب يقاسمني هذه القطعة الصغيرة من البهجة قبل أن تتبدد.. حتى انني حاولت بشتى السبل تأخير النادل، الذي جلب لي قدح الشاي وقطعة الجبنة التي طلبتها، إلا ان اللغة لم تسعفنا.. فابتسم لي بطيبة صادقة، وغادرني محرجا، الأمر الذي أجج رغبتي بحضور أي كيان حي يصلح نديما.. وضعت طعامي على الافريز ورحت أقضم الجبنة وأرتشف الشاي على مهل.. فكرت ؛ لكم هو هش هذا الانسان، فهو كما لا يطيق وجع الحزن وحيدا، لا يشعر بلذة البهجة وحيدا.. أشعلت سيجارة وأخذت منها نفسا عميقا، يا له من هو غني النكهة ومبهج مثل كأس نبيذ معتق، أليف ودافئ، مع رشفات الشاي العطرة الحلوة.. وفجأة ، حط على افريز النافذة طائر أبيض كبير.. يا لله.. يا له من نورس عجوز ضخم ..ترك الاف النوافذ المطلة عليه واختارني.. أي ريح طيبة.. وأي حظ حسن

ساقك إلي، أيها الكائن الطيب الجميل.. أنت النديم الذي لم احلم بروعته.. ابتسمت له فحدجني بعينيه الزبرجديتين مستفهما عن الخطوة التالية.. فتحت النافذة بهدوء بالغ كي لا اخيفه، وبالقدر اليسير الذي يسمح لكفي بأن تمتد إليه بقطعة جبن.. تراجع الى الخلف وجلا وهم بالطيران، ثم رمقني بنظرة أخرى فاحجم واطمأن، وكأنه قرأني خلالها، اذ مد عنقه بثقة واختطف القطعة بطرف منقاره، ثم التقمها وأسلم جناحيه للريح.. راح يحلق بعيدا.. فتبعته بعيني.. وحرصت أن أظل أميزه بين الأسراب الكثيرة من طيور الماء، وهو يسبح في السماء بين زرقتين.. لا أدري لما انتابني شعور عميق انه كان مثلي، يبحث عن قلب يلوذ به، وقد وجدني ولسوف يعود.. وحدست انه كان مفعما بالفرح وهو يشعر بعيني تطيران خلفه مباشرة، وراهنت انه كان يتجنب الدخول وسط الأسراب الكثيفة، كي لا تضلاه .. دار دورة أخيرة وعاد صوبي .. راح يقترب حثيثا.. يكبر ويكبر حتى حط على الافريز برشاقة وحدجني بفخر كانه يقول(ها.. ما رايك..؟)نفض جناحيه ثم طرق الزجاج بمنقاره.. مددت له يدا فارغة هذه المرة، فدس بها راسه الناعم الرطب وفركه براحتي ..مددت له يدي الأخرى بقطعة خبز ، فالتقطها شاكرا ، وألقى بجسمه الكبير في الهواء وراح يبعد.. فيما كانت الشمس قد بدأت تميل الى الغروب، وعلى البقية الواهنة من نورها، تبعته عيناي حتى كلتا، وقد بسط الليل جناحه على البحر.. وكان علي أن أنام مبكرا لأصحو مبكرا وأحزم أمتعتي وأغادر.

•

وحـين صـحوت، مـع اول خيـوط الشـمس، شـعرت بـان معـي ﭬ الغرفـة رفقـة مـا، وأن عيـنين قـريبتين تحـدقان بقفـاي، فالتفـت بسرعة، وهالني ان وجدته على الافريز يقلب نظره ﭬ بصمت .. بدا لي انه كان هنا منذ الفجر، ولم يشأ ان يوقظني ..فتحت النافذة ومسحت على رأسه، ثم جلبت له من الثلاجة ملعقة من حبات البازلاء، وضعتها على الافريز وغبت ﭬ الحمام دقائق، و ادهشني ، حين عدت، انه لم يلتقط طعامه كانه يقول؛ أنا لم أت للأكل بل لأراك ..اه يا الهي ها هو قلب آخر يريدني أن أترك بعض قلبي هنا وأرحل، استعدت الأوجاع الكثيرة التي طالما خلفتها مفارقة القلوب التي أتعلق بها.. حتى جاء هذا الكائن الحنون ليجهز علي بهذه السرعة.. فأنا راحل فورا، وسوف لن أراه الى الأبد.. وفيما كنت أعد أمتعتي للسفر...كانت عيناه تلاحقانني ﭬ فضاء الغرفة مثل طفلين لا يريدان رحيلي.. لم يعد قلبي يطيق أن التفت إليه وأراه بذلك الأسى.. فخرجت على عجل وصفقت الباب خلفي.. ولكنني تسمرت هناك أفكر به.. هل ذهب الآن... آه يا الهي! يا لي من هاوي تعب.. لم لا أذهب هكذا ببساطة دون أن أخلق لقلبي جوا موجعا ؟ لم ؟ لا أدري.. المهم انني فتحت الباب، بعد حين، ودخلت مجددا .. وكما توقعت.. لقد كان واقفا حيث تركته.. ساكنا يحدق بالباب كأنه متأكد انني سأعود.. ههه .. نعم ! وكان على حق ... فاضت عيناي بالدمع بصمت.. واستعدت له جلسة الأمس أذ مددت له يدي فدس رأسه بها قليلا فيما بدا لي طقوس وداع . حينئذ فقط راح يلتقط حبات البازلاء على مهل، قبل أن يرمقني بنظرة شكر أخيرة ويسلم جناحيه للريح .

اليوم الذي احال ما بعده ركاما

بعد جمعة ممتعة، أمضياها في الريف، عادا مساءا وناما مبكرا .. وفي صباح اليوم التالي ..تناولا فطورهما على عجل وذهبا الى المدرسة مبتهجين ببدء الاسبوع الأخير من السنة الدراسية.. الذي كرت أيامه رتيبة.. يصطحب الأستاذ سامي ولده محمد كل صباح الى المدرسة ..يجتاز الصبي الاختبار بثقة ويعودا قبيل الظهر.. لتتحلق العائلة بعد قليل حول صينية الغداء.. يعقبه الشاي فالقيلولة فالصحو عصرا ومراجعة يسيرة استعدادا لاختبار الغد.. فمساء فعشاء فنوم مبكر، فصباح يوم جديد.. سبت.. أحد.. اثنين.. ثلاثاء .. خميس. رغم التشابه الممل للأيام إلا انها كانت خفيفة ومفعمة بالفرح لما سيعقبها من عطلة صيفية طويلة ستمضي العائلة معظمها في جنة من الماء والخضراء والوجوه الطافحة بالبشر لأهل الريف.

ولكن مهلا ! هل سقط يوم الاربعاء... سهوا ؟ كلا... بل غفل عنه الزمان.. فظل كامنا تحت الرمل مثل أفعى قاتلة تتربص بضحيتها.

مرت الأعوام والصبي يكبر، ويكبر معه تفوقه، بفضل شغف بالعلوم وذكاء وقاد، ورعاية أب كرس حياته لمستقبل ابنائه، وعناية

أم تفيض دفءا وحنانا.. أنهى محمد المرحلة الثانوية بمعدل يؤهله لدراسة الطب بيد انه فاجأ الجميع باختياره دراسة الهندسة. عارض والداه أول الأمر، لكنهما سرعان ما باركا اختياره، بعد ان لمسا اصراره على تحقيق رغبته، والحق انه كان عند حسن ظنهما ، اذ نال الشهادة الجامعية بامتياز وحظي ببعثة للدراسات العليا في اوربا، عاد منها بعد بضع سنين يتأبط درجة الدكتورا بمرتبة الشرف، فتسنم كرسي علم الالكترونيك في الجامعة، ومنذ ذلك الحين وهو يدهش الجميع، بعمق أبحاثه ومؤلفاته وفرادة ابتكاراته.. كان بالجملة مبعث فخر لزملائه وتلاميذه.. وقبل ذلك كله، كان محط رضا و فخر والديه اللذين يتصدران الآن الصف الأول من القاعة المكتظة بالنخبة من المهتمين.. وأنا أجلس خلفهما مباشرة.. وكلنا بانتظاره ليقدم دراسة جديدة مشفوعة بنموذج مصغر لمشروعه العملي الذي سيضع حدا لمشكلة الطاقة.. وثم جمع من الصحفيين يجوب الأروقة، للقاء هذا وذاك من المهندسين والاقتصاديين والمسؤولين الحكوميين، والكل يعرب عن ثقته بنجاح المشروع العتيد وجدواه .. الا ان اللافت للانتباه هو ان الأستاذ، الذي عرفت عنه الدقة في الوقت والالتزام بالمواعيد، قد تأخر كثيرا على غير عادته، ورأيت والديه يتبادلان نظرات القلق، قبل ان يسري في القاعة خبر يبعث على الارتياح ومفاده ان الدكتور محمد يجلس خلف ستارة المسرح منذ بعض الوقت، يعد أجهزته وأوراقه ونموذجه، ريثما يتم اصلاح آلية فتح الستارة التي تعطلت فجأة.. وبالفعل شوهد رجل ضئيل أشيب كث اللحية

يحمل على عاتقه سلما معدنيا، توارى خلف الستارة الحمراء، وباشر عمله الذي سيستغرق بضع دقائق كما قيل.

في تلك الاثناء، عادت بي الذاكرة ثلاثين عاما.. الى الاسبوع الأخير، من تلك السنة الدراسية المشؤومة، الاسبوع الذي وثب اربعاؤه الآن من تحت رمال العمر، واحال كل ما بعده ركاما.. اذ اقتحم المدرسة ثلاثة من رجال الامن، بشوارب كثة تضفي على وجوههم مزيدا من القسوة والتجهم، وقد تعمدوا ان تبدو مسدساتهم على الارداف للعيان، جلسوا في غرفة المدير والقوا ساقا على ساق كأنهم في غرفتهم الخاصة. وتحدثوا بلهجة آمرة متعالية عن ضرورة احضار معلم بعينه لأمر هام.. هرع المدير يرتجف هلعا، الى أحد الصفوف .. أطل من بابه الموارب متعجلا، وأبلغ المعلم ان ضيوفا يطلبونه في الادارة حالا. ثم عاد راكضا على الفور.. أوصى المعلم زميله بمتابعة الرقابة على الممتحنين ريثما يعود..

ماذا ؟... هل قلت توا(يعود) ؟! ومن ذا الذي بوسعه ان يفلت من الموت ويعود ؟.

خرج متعجلا قلقا، وتبعه ولده الذي كان ينتظر قرب الباب، بعد ان أنهى امتحان الجغرافية مبكرا.. وفور دخول الغرفة هب الثلاثة بسؤال واحد سريع، دون ان يردوا على تحيته(هل انت سامي؟) وما كاد يجيب بالإيجاب، حتى انقضوا عليه واقتادوه عنوة، فيما كان ولده خلفهم ينتفض رعبا، وفي الخارج كانت بانتظارهم سيارة مازال محركها يدور.. تعلق الطفل بابيه وأجهش بالبكاء، فانتزعوه وابعدوه عنهم، لكنه تسلل من بين أقدامهم

وتشبث بأبيه مجددا، فجروه بعنف والقوه بعيدا، ثم صفقوا أبواب السيارة بصخب يصم الاذان، وانطلقوا بأبيه الى الأبد.

نهض الطفل وقد اختلطت بوجهه الشاحب الدموع بالدماء والتراب.. وانفض الناس من حوله كأنه موبوء، خشية ان يتهموا بجرم التعاطف مع معارض للنظام ، لم يلتفت لأحد من الجمع الغفير الذي أحاط به للفرجة لا غير، إذ ليس بينهم يد واحدة تجرؤ على مسح دمه ودموعه، سلك طريقه الى البيت وحيدا منكسرا لأول مرة، دون أن ينفض عنه الغبار أو يغسل وجهه وقد خلف وراءه في تلك البقعة من العالم أوراقه وأقلامه وروحه تذروها الرياح.

صحوت من الكابوس الذي ألم بي، على الستارة وهي تنفرج على مهل، في عاصفة من التصفيق للرجل الذي أصلحها توا.. ولكن المسرح بدا موحشا مثل فم فاغر بالدهشة والرعب، مثل أفواه جميع الحاضرين ، الذين كانوا يحملقون بوجوه بعضهم البعض، ذاهلين عن سبب وجودهم في هذا المكان والزمان.. غير مدركين، كيف ولماذا، هم الآن هنا، ومن ذا الذي كانوا ينتظرون.. ثم نهضوا مرة واحدة، وتحركوا سويا ببطئ، مثل جمع من المسرنمين.. وبدأوا بمغادرة القاعة، في مشهد سريالي مفزع.. ولم يكن بينهم والدا محمد سامي، الرجل الأشيب الضئيل الذي مر في تلك الأثناء حاملا سلمه المعدني وخرج من القاعة.

الغائب الحاضر

كانت تسير الى جانب عريسها مطرقة واجمة.. تصغي لهسيس الكفن الابيض الذي يلفها، وقد بدا مثل انين مكتوم، راح يتصاعد حتى طغى على ضجة الزغاريد والاغنيات، والتي توارت خلفه حتى بات الخليط عويلا بعيدا، يتبع جنازة تزف الى قبرها على اكتاف نيام.. كانت تواكب خطاه المتعجلة، ذاهلة، حين داهمت يده حمامة كفها البيضاء الغافلة واقتنصتها.. أجفلتها المفاجأة ابتداءً.. فأوشكت ان تفر، ثم سرعان ما تمالكت نفسها وتركتها له ميتة.. سرت في جسدها قشعريرة حمى وهي تذكر كف يوسف، التي لم تكن رخامية باردة مثل هذه، بل كانت دافئة لدنة كالقطيفة، وكلما دست اصبعها فيها، تعرق وتغدو زلقة، فتستبدله بلطف، ويضحكان، أو تنط الى الجهة الأخرى ويتهاديان مثل زنبقتين في بحيرة. كان حبيبها فارع القامة تشعر معه بالاتساع الباذخ لعينيها، كلما رفعتهما لعينيه...أين منه هذا القميء الذي يدب الى جوارها ويسوقها الى مذبحها عنوة.. آه .. المذبح الذي سرعان ما وصلاه.. دفعها اليه، وأحكم اغلاق الباب.

جلست على حافة السرير، المترامي الاطراف مثل صحراء موحشة.. وقد لاذت بصمتها، اذ ليس لهذا الرجل الغريب من لغتها حرف واحد، فكل الكلمات كانت وستبقى ليوسف.. ويبدو ان العريس الغريب لم يكن يعنيه منها سوى جسدها، فتدارك الوقت وقشر فاكهته الشهية على عجل، دون أن ينبس بحرف، ثم راح يلتهمها باحتراف.. وفي لحظة غياب.. احتراق.. احتضار.. افلتت من شفتيها أول الكلمات واخرها:

آه يا حبيبي....يا عمري !

همستها من أعماقها اللاواعية، فأوشك الرجل في ومضة العنفوان تلك، أن يطير مزهوا برجولته.. قبل أن تواصل هذيانها لتلقي به من شاهق الى أسفل سافلين:

اه يا عمري يا يوسف !

سمع كلاهما الاسم الذي انبثق بغتة من أعماق الجحيم مدويا، واعقبه سكون الموت.. إذ همد الجسدان ..تowارت قطرات العرق في مسامها.. ذهلت الشفاه عن آهاتها.. وانطفأت العيون في محاجرها.. أطبق صمت رهيب على الوجود بأسره.. الا من صدى الاسم الذي ظل يتردد الى الأبد... يوسف... يوسف... .

ختان العقل

لم تفلح الطرف التي كنا نتندر بها على بعضنا، بالتسرية عنا، فلقد كانت رحلة مشؤومة من اولها الى اخرها، ولكن لم يكن لنا بد منها ..أما آخرها فرعب ما بعده رعب.. إذ قيل ان تابوتا قياسيا ينتظرنا عند مدخل المدينة وجهتنا، يقاس به الوافد إليها بأن يضجع فيه، فما زاد منه ينشر ويرمى، وما نقص طوله عنه يمط.. قال صاحبي وهو يغتصب ضحكة مخنوقة سرعان ما تحولت الى عويل:

سنقترح عليهم ان يتركوا لنا راسا وقدمين.

رمقته بذهول وقلت ساخرا من اقتراحه السريالي:

اي، هي باجة.. ولا تنس البصل والطرشي، قلت رأس وقدمين.. ها؟ يبدو انك جننت قبل ان ترى التابوت، هاهاها..

انفجر المسكين معي بضحكة مجنونة، قمعها سريعا بالأنين الذي زم عليه شفتيه، وراح يذرف الدمع بصمت .

ابك! (قلت له) ابك يا صديقي فقد لا تجد عينين تبكي بهما بعد قليل.

صاح: مستحيل !

ثم أوقفني بحركة عنيفة مفاجئة، وأردف بلهجة صارمة :

اسمع! فلنتفق الآن.. الرأس من نصيبي.

قلت وانا اكتم ضحكة كادت ان تنفجر:

كفاك صراخا.. ها قد وصلنا.

كان الطابور، على بوابة المدينة، طويلا وسريعا على نحو استثنائي.. يتزاحم الناس فيه، بالمقلوب، خلافا لكل طوابير الدنيا.. فالكل يحاول جاهدا أن يدفع امامه اكبر عدد من الناس، ويتمسك بالدور الأخير، زاعما انه وصل توا.. ولما أبصرنا الجمع، تشاجر بعضهم معنا على الدور الاخير، زاعمين اننا وصلنا قبلهم، بل ان أحدهم اقسم انه رآنا نتلكأ في الجوار منذ الصباح الباكر، بيد اننا دافعنا عن مؤخرة الطابور اللعين بضراوة ، وفعلنا الشيء نفسه بالقادمين الجدد ولكن دون جدوى، ولما وصلنا الى التابوت، حاول صاحبي عبثا، ان يدفعني امامه لكنهم انتزعوه من الصف بعنف مثل خروف حان ذبحه.

أضجعوه، فزاد منه عن التابوت بمقدار جمجمته، فوضعوا عليها المنشار ونشروها بحرفية نادرة و القوها مع دماغه في حاوية القمامة.. ثم أفلتوه من أيديهم، فهب ينتفض مثل كلب خرج من الماء توا ..

التفت الي برأس مثل نصف بطيخة وقال:

طالما كنت محظوظا يابن ال...

ولم يستطع ان يتم سبابه، إذ ان أحدهم دفعه نحو البوابة بعنف، وجرني.. ثم أضجعني، ونشر نفس القدر مني، أو هكذا خيل إلي.. إذ

اننا كنا بنفس الطول تقريبا، وهذا ما فكرت به ، بما بقي لي من حثالة مخ ، وانا انهض سريعا والحق بصاحبي مسرورا بأن يسر الله لنا دخول المدينة المقدسة، التي فوجئنا ان كل من فيها مثلنا، الطوال والقصار على حد سواء.. أدركنا حينئذ ان التابوت، مجرد وهم، وان القيمين على المدينة، من الحكمة والرحمة، بحيث يختنون عزلة العقل، ليضمنوا طهارة الداخلين إليها.

رسالة لا يمكن ان يفهمها احد

رغم ان الحريق الذي اندلع في بلادي يوشك ان يأتي على كل شيء ، إلا ان أحدا لا يعنيه اطفاؤه، لان البدو الأغنياء هم من أشعله، ليستدفئوا به من برد شتائنا ويقيموا عليه حفلات شوائهم في صيفنا، فاذا عادوا الى صحرائهم ، كانوا يطردون القمل والحشرات المقيمة في جلودهم بدخانه ..فضلا عن كونه حريقا اقتصاديا بامتياز، فهو لا يكلفهم نفطا ولا غازا ولاهم يحزنون، بل يكادون ان يطيروا فرحا حتى، لشغفهم الموروث بالحرائق.

في هذا الحريق، الذي طال امده، نبتت الكوابيس من الحقائق.. وتفجرت الحقائق في الكوابيس. وعصفت بنا ريح هوجاء، تمحو وتنقش ما تشاء، كالأبالسة دون رقيب.. والا فمالي بربكم، لم أعد أذكر؛ أين ومتى ولماذا وكيف؟ وقعت هذه الرسالة الغرائبية بيدي..وهي من طفلة في العاشرة، ارسلتها الى الله، هكذا، دون سلام او بسملة، تقول فيها:

((عمري عشر سنوات.. لا أعرف كيف أوصل رسالتي الى ربنا.. اسمي مريم.. أريده أن يعيد الي بابا وماما، أو يأخذني إليهما

رجاءا.. يا رب ، ما يكون طلبي ثقيل عليك .. إلا انني أخاف المبيت على الرصيف))

ولأنني مجرد ساعي بريد عجوز ، لاحول ولا قوة..... لا يسعني أن أفعل شيئا غير أن أنتحب وأنتحب.. آه.. آه لو استطعت أن أفعل شيئا لما تأخرت عنها، ولو كلفني ذلك قلب قوانين الكون رأسا على عقب ، ولكن مهلا !..للانصاف ، أقول :

انني، وبحكم عملي في بريد حلب منذ عقود، خبرت خليطا من لغات شتى عربية وكردية وتركمانية وسريانية.. وبات بوسعي أن افك أغرب الخطوط، بل وأقرأ ما بين سطورها، الأمر الذي مكنني من هذه الرسالة المطلسمة، بيد انني لا أحسب ان أحدا غيري، أيا كان ، يمكنه ان يفهمها.. ومن ثم فهي رسالة ستعاد الى عنوان مرسلها، على الرصيف.

التوأمين

قبل ان تفرقهما الاسماء والافعال والضمائر، في قواعد اللغة.. وقبل ان تباعدهما صيرورة جسديهما، ويحول بينهما الزمان والمكان، كانا قبل عشرة اعوام يسبحان في فضاء واحد، يقتسمان عريهما مثل نصفي رغيف ..ثم انفلقت الصرخة الاولى، كأول واخر شيء سبقته إليه، قبل أن يفرقوا بينهما.. إذ أخذوه شمالا واقتادوها جنوبا ، فكان يعلو وتهبط.. يحلق وتدفن .. يتنفس وتختنق.. ثم منحوها نصف هوائه وفضائه وكبريائه، وضعف دموعه وشقائه.. راح يكبر وتصغر حتى غدا الأب الآخر لها ، وهو توأمها الأصغر.. بات يقتحم عليها خلوتها ساعة يشاء، بلا استئذان، فيفر قلبها من السرير قبل جسدها، وتدس يديها بين ساقيها الملتزين١١٩٩ على بعضهما بلاصق الذل، بحرص متشنج، يغمرها شعور موجع بالعار، وتضع عينيها بالأرض ، تمسح قدميه بانكسارها، وهو يلقي عليها عظة ، لقنها، في قواعد الستائر والنوافذ.. يأمرها ان لا تطل عليهم من كوة زنزانتها، مدركا ان لا راد لأمره.. ترى قدميه تستديران نحو الباب، يصفقه بعنف وعنفوان. وتسمعه يتنطط ، بمرح، على درجات السلم، نازلا لأصحابه بالكرة.. تذرع الغرفة، جيئة وذهابا،

يشتعل فيها تمرد فطري، لعله ينتمي لإلوهتها القديمة.. تزيح الستارة قليلا وتختلس النظر المحرم الى الشارع، حيث يلعبون.. كانت تعاني من أمور تجهلها هي ، وتعرفها أمها.. فهم يتحدثون عنها بصيغة الغائبة، بكلمات مبهمة تثير اشمئزازهم، كالنفايات.. وكان آخر ما قالته لهم طبيبتها، ان الموعد غدا.. وحين سألت أمها عنه قالت: ليس شأنك !.

فكرت مستنكرة: عجباً ، مرضي ليس شأني؟ شأن من أنا اذن ؟

في صباح اليوم التالي، جللتها أمها بالسواد مثلها تماما، بحيث يتعذر تمييزهما لولا فارق الحجم .. اقتادتها، فأسلست لها القياد ، مثل أضحية يوم العيد وكان أبوها يسبقهما بخطوات كالعادة.. تنظر الى قفاه الذي تعرفه أكثر من وجهه .

في المستشفى؛ فحصتها الطبيبة مجددا، ودققت النظر في صور الأشعة وقرأت التقارير الطبية السابقة ونتائج التحليلات المخبرية، فانفرجت أساريرها.. ودون ان تكلم الصبية أو أمها، هرعت الى الباب فأشرعته، حيث كان الأب يذرع صالة الانتظار بخطواته قلقا.. رأت الطفلة أباها يقف، لأول مرة، بين يدي أنثى بأدب جم، مثل تلميذ خجول، وهو يتلقى خبرا ما.. بدا وكأنه بشرى بمولود ذكر، إذ كاد يطير فرحا ويفقد هيبته.. الأم هي الأخرى وقفت تستمع دون أن يدعوها أحد، وقد بدا عليها الشعور بالفخر والاعتزاز، كمن اجترح معجزة ما توا، إذ باتت تتقلب مثل أوزة مكتنزة.. وحدها الطفلة لم تفهم شيئا غير ان موعد العملية بعد أسبوع.

تغير كل شيء خلال أسبوع الخليقة هذا.. انتهكت قوانين الطبيعة، بأريحية لافتة، إذ رأت وجه أبيها لأول مرة. وكأن عارا ما قد غسل ، او انه يوشك أن يغسل .. التوأم ذو الصلاحيات الابوية، لم يعد كذلك.. لا تدري ما الذي قالوه له، حتى كف عن استعبادها مرغما.. أمها بدت كأنها منهمكة بالاستعداد لمولود جديد .. باتت ، هي، تخشى انتهاء أسبوع العسل هذا، والعودة الى ما كانت عليه.. ولكنه مر أسرع من سواه ..أجريت العملية .. نجح المشرط باستئصال تعاستها، رحب الجميع بعودتها الى عالمهم، إذ انها غدت منذ الآن باسما ولم تعد باسمة.. والحق انها لم تكن يوما باسمة ابدا..

حميد قيق

لم يكن جان فالجان اكثر بؤسا وشقاءا من صاحبنا، حين توجه فكتور هوغو زعيما للبؤساء.. فلقد كانت بواكير حياة حميد يتم وجوع ومرض.. وخواتيمها كما سنبسط خلاصتها الان.. ها هو ذا حميد، طفل في العاشرة ، يرتجف من البرد في الخربة التي تأويه مع أمه، التي تشرف على الهلاك من جوع وبرد وحمى، في ليلة شتائية قاسية، امعنت بعذابهما برائحة الشواء التي تعبق من الدار المجاورة.. لم يعد الطفل يصبر على جوعه، فوسوس له شيطان البؤساء ان ينتزع لقمته من افواه الملائكة.. غافل أمه، وتسلل مثل ثعلب الى بيت المشغولين بشوائهم .. سطى على القن وانتزع منه دجاجة وفر بها.. تمزق سكون الليل بزعيق الدجاج.. قيق .. قيق هرع أصحاب الدار سريعا وأمسكوا باللص الصغير.. انتزعوا الدجاجة اللعينة من يده ، ولم تكف عن صياحها المشؤوم بعد.. أعادوها الى القن وتفرغوا له ..جروه الى وسط الشارع ، في ضجة أكبر من السارق والمسروق.. اندلعت أبواب التقاة الذين نغص عليهم حميد لذة سحورهم المقدس ، وسارع كل منهم لينال ثوابه من جسد اللص الخطير.. هاله حجم الكارثة التي ألمت به والتي لم

تخطر بباله، حين انساق لشيطان الجوع .. تلطخ وجهه بالدماء والدموع والمخاط ، أطلق صوته عاليا بالصراخ يستنجد بملاذه الوحيد .. وهل ثم من ينجده سواها.. جرجرت المرأة جسدها المتهالك خارج الخربة، وزحفت نحو الحشد، فهالها عدد الذين كانوا يصفعون ويركلون ويرجمون صغيرها.. أمسكت بأقدامهم.. توسلت اليهم حتى تقطعت انفاسها وبح صوتها، دون جدوى، حتى اجهزت عليها ركلة فأزهقت روحها.. حينئذ فقط اكتفى التقاة بما نالوا من حميد المكور، على الجسد الهامد لأمه.. يحدق بالعينين الجامدتين اللتين طالما لاذ بهما.. يصم أذنيه خليط من صياح دجاج أبدي وأصوات حشود غاضبة لا تنقطع.. في تلك الأثناء، انبثق صوت المؤذن في الجامع القريب، فانفض عنه المؤمنون الى صلاتهم، وهب هو من مكانه كمن صحى من كابوس مرعب، وهام على وجهه في الدروب.. تتقاذفه الخرائب الموحشة، إلا من عينيها.. وقد ترك عقله هناك الى الأبد.. تركه ثمنا لكل السرقات التي اقترفها البشر، هاربا، يطارده أولاد الأتقياء في الأزقة منذ عشرين عاما، بصياحهم:

قيق.. قيق.. قيق..

اش

كان اش، ولاسمه هذا سبب سأذكره فيما بعد، كان مشاغبا يتنطط في أرجاء الغرفة، يترقب غفلتي ليخطف المسبحة من يدي ، يتقاذفها بقوائمه الأربع وهو مستلق على ظهره قبل أن يرميها بعيدا .. وحين يلاحظ انشغالي، يتسلق ظهري ناشبا مخالبه بياقتي ليلعق شحمة أذني، ولكم خشيت أن يقضمها بأنيابه الابرية الصغيرة.. كان يأتي بحركات جوهرها أنه يريد اهتماما، وكأنه يقول: لا تنسني.. أنا معك هنا .

اش هذا المولع بالاهتمام، لم يعد في الآونة الأخيرة كذلك، فهو لم يعد يولي وجودي أي اهتمام.. لقد هجر شغبه الطفولي المعتاد.. هجر حضني الذي كان يلوذ به ليغفو ويهر بهناء.. ولم يعد يخربش كل ما تقع عليه عيناه، أو يلاحق ذيله في دوائر مضحكة بلهاء.. ومهما تحرشت به بالمسبحة، التي كان يحبها، لم يكن يلقي لها بالا .. لقد بدا لي اش شاردا مهموما قليل المواء.. إذ نادرا ماكنت أسمعه يموء.. وكأنه بات يجد المواء بلا سبب، من قلة الأدب.. أو لعله بات يؤمن أن؛ خير المواء ماقل ودل.. وكأنه فقد طفولته مثلنا نحن البشر حين نكبر ونفقدها، في مقلب ينطلي

علينـا، لنفقـد معهـا سـعادتنا الى الأبـد ، بحجـج واهيـة كالتعقـل والحكمة.

... كلما افتقدته وجدته في زاوية من الحديقة بعينها.. مقعيا تحت شجيرة الدفلى في جلست تأمل، يمسد فروه بلسانه ويرمقني بعينين مؤرقتين كأنه يقول: ألا تكبر أنت الآخر ؟ إليك عني ! .. ثم يتشاغل عني بتأمله اليوغي العجيب .. كان يحيرني سر التغير الذي طرأ عليه، قبل أن ألمح تلك الفاتنة تتسلل من تحت الشجيرات، وتتهادى في الظل أمامه مثل أوزة مزهوة باكتنازها الشهي، الذي طبع عينيه بكل هذا الذبول.. هكذا اذن ! ... اش الذي أخذ اسمه من طعام الشهر الاول من طفولته اليتيمة فأدمن أكله ونال اسمه بجدارة ، كبر الآن وبات عاشقا متيما بزرقاء العينين تلك التي رأيتها الآن تشمله بنظرة قطية زرقاء وتتوارى خلف السياج على مهل ،ليتبعها مسيرا لا مخيرا مثل قط آلي.. بل مثل انسان.

مخلفات الاخرين

كمن كان أعمى وقد أبصر توا.. فتح عينيه على اتساعهما دهشة وجال في الأرجاء.. أذهله ألا شيء مما حوله يعود إليه بل لأولئك الذين مروا من هنا.. الاشياء المعلقة في الجدران ..المعترضة في الممرات.. المنتصبة في الأركان.. المكدسة فوق وتحت وداخل كل شيء ليست إلا مخلفات الآخرين.. المخلفات التي اكتشف توا، انها تكاد تقتله برائحتها العطنة، وهي تتحلل من حوله عن ألوان مطفأة وسطوح صدئة وأعماق متهرئة.

ياه...... يا لي من أبله!(حدث نفسه) كيف أضعت العمر في هذا العالم المسخ ؟ كيف؟ (تساءل) هه(ضحك بمرارة) عالم ليس فيه ما ينتمي إلي أو أنتمي إليه.

آه.. حتى (أنا) هذه التي هي أناي، أدركت الآن فقط، انها لم تكن لي يوما..

ابتسم بسخرية وهو يحاول أن يتذكر متى شعر آخر مرة انه هو بالذات.. فلم تسعفه الذاكرة.

انتفض، ملقيا عنه استسلامه المألوف، وهبط الى ناصية الشارع، ينوء بحمل رأسه الذي انقض ظهره.. فتحه وأفرغ كل شيء في

مكب النفايات، ثم صعد يقفز على درجات السلم بخفة، مثل طفل اكتشف توا انه يستطيع أن يفعل شيئا كان يحسبه مستحيلا.. حين دخل الفى نفسه جديدا.. نظيفا.. وسط أفق واسع نقي يصلح لبداية جديدة.. ضحك من أعماقه لأول مرة دون أن يخنقه شيء ما، وقد آلا على نفسه ان لا يعبئ رأسه بمخلفات الآخرين مجددا.

تواصل بعد الموت

حطام الجسد المجلل بالملاءة السوداء، على الجسد الغض الملفوف بالكفن الأبيض ، لوحة سريالية بالأسود والأبيض.. تصلح ان تكون الشعار الوطني لهذه البلاد.. هذه البلاد، التي كل موتاها ضحايا جريمة قتل.. سواء كان مرتكبها الارهاب أو الجهل او(الشرف) أو الاهمال او الاستهتار الطبي بالأرواح الأرخص على مستوى الكوكب.. وإلا كيف تسنى لزوجة شابة، لا تشكو شيئا، ان تترك زوجا محبا وثلاثة أطفال مثل طيور الذهب، هكذا ببساطة، وينجح المشفى بمنحها شهادة الوفاة، في مدة قياسية يستحق عليها الذكر في كتاب غينس ؟ كيف بالله عليكم؟ وسؤالي هذا لا ينتظر جوابا، بطبيعة الحال، فهو والسطور التي سبقته ليس إلا سخرية مرة مبللة بالدمع، بعثها في مشهد الأم التي تقوست مثل ضلع، تتوسل بابنتها أن تعود لأطفالها الذين ينتظرونها مذعورين، مثل عصافير في قفص، لا يدركون ما حصل لها.

كان القبر فاغرا، مثل وحش نهم بلا قلب، وهي مسجاة على حافته، يشف كفنها عن أصابع القدمين الصغيرتين، حيث جلست الأم تقبلهما، وتتوسل للناس أن يدعوها تبيت معها ليلتها الموحشة

الأولى.. ثم رفعت صوتها بالاعتراض فجأة، وأقسمت ان ابنتها حية.. لقد لمحت، عبر القماش الشفيف، عينيها تطرفان قبل ان تفتحهما على اتساعهما، وتحدجها بنظرة ذات مغزى.. و انها حين لمست كفها، شعرت بأصابعها تضغط عليها... أقسمت وتوسلت ولكن دون جدوى.. لملمت يأسها وخيبتها، وتسللت الى غرفة مهجورة في الجوار.. اختبأت هناك عسى أن ينسوها ويذهبون.. تقدم حينئذ الزوج من الجثمان.. وأسر لزوجته بما لم يقله لها طول العمر.. ابعدوه عنها وأتموا طقوس الدفن العقيمة، بغياب الأم التي كانت تقبع في زاويتها تهذي:

اتصلت بها البارحة(قالت) فوعدتني أن تأتي لتقيم عندي بعض الوقت..لقد وعدتني بذلك وهي لا يمكن ان تخلف وعدها(أضافت).

توقفت فجأة، كأنها تذكرت شيئا مهما.. أخرجت الجوال بيد مرتعشة واردفت:

سأتصل بها، فهي ترد على اتصالاتي فورا، وفي كل وقت.. لم تخذلني يوما أبدا.. ولا أحسبها ستفعل الآن . ليس في جوالها سوى بضعة أرقام، أولها رقمها، فسرعان ما اتصلت.. انفرجت اساريرها... حين بدأ يرن

رن الجرس.. رن.. ثم فتح الخط بغتة:

الو.. أسماء !.. أسماء ؟

نعم يا أمي.. أنا هي.

انت حية اذن يا بنتي، لكم قلت لهم ولم يصدقني احد. ؟

مهلا يا أمي، ما زلت لا أفهم شيئا .. لقد حدث كل شيء بسرعة وغموض .. أرجو أن تعتني بأطفالي وأن تعديني ألا تحزني يا أماه .. ولسوف أرد على اتصالك في أي وقت .. هذا وعد.

الموت صيفا

كان كلما انقطعت الكهرباء، يفر الى سريره على السطح، هربا من الحر الخانق، حيث يضطجع مستمتعا ببرودة الفراش وصفاء السماء المفعمة بالذكريات، تهدهده نسمة نادرة من حين لآخر.. لا ينغص عليه هذه اللحظات الماتعة سوى ضجيج الرصاص، الذي يطلق بكثافة في أماسي الخميس المكرسة للأعراس عادة.. شعر بلسعة في الجهة اليسرى من صدره .. مد يده على الفور ليسحق الحشرة التي تسللت تحت قميصه، كما ظن، إلا ان أصابعه عادت بسائل دافئ لزج، سرعان ما تدفق منه الكثير.. حارا.. حارا.. نقع به القميص والفراش.. ثم بدا يفقد حرارته شيئا فشيئا.. فهم الأمر، ولم يشأ ان يفزع أطفاله بالصراخ، أو لم يكن بوسعه أن يصيح، أو انه علم ان الأمر انتهى ولا جدوى من فعل شيء . تناهت لسمعه ضحكاتهم، وقد قطعها رنين الهاتف وسمع زوجته ترد على أخيه الأكبر:

مساء النور.. نعم.. لكنه نائم.. هل أوقظه.. أها.. بشرك الله بالخير.. وأخيرا ... نعم سأبلغه في الحال.. وأنت من أهل الخير.

اعقب ذلك خفق خف صغير على الدرجات.. انها ابنته .(آه يا إلهي كيف ستتلقى الصدمة) فكر.. ألقى باللائمة على أمها.. (ولكن ما أدراها) ثم استدرك..(والآن كيف سأعتذر لأطفالي وقد تركتهم فجأة).

امتدت الكف الصغيرة لتوقظه، فتضرجت بلزوجة لا تعرفها.. تجاهلت الأمر لأول وهلة، لتزف له الخبر السعيد الذي هيمن عليها:

بابا.. بابا.. أتصل عمو يقول انهم وافقوا على تعيينك.. وأخيرا يا بابا.. انه ينتظر منك اتصالا.

كان يسمعها، ويرى الرعب الذي بدأ يتسلل الى قلبها الصغير.. ولا يستطيع أن يرد بكلمة أو يأتي بحركة (ليتك ترى عيني ابنتي الآن.. لتدرك بشاعة ما فعلت)

سكاكر القبلات

باتت كفه الصغيرة المكتنزة، تصل الى الاكرة الخزفية الملونة لباب الخزانة، اذا ما وقف على اطراف اصابعه. صار بوسعه أن يفتح الباب.. وكان ذلك اكتشافا مذهلا غمره بفرح راقص.. وكلما ضبطت الأم جنيها الصغير يفعل ذلك، تلثم كفه وهو يحدق بعينيها ويطرف برموشه كثيرا، وتجرب شفتاه ترتيب الحروف بكلمات ملائكية لا يتقنها سواه، ولا يفهمها غير قلب الأم.. فتفهم مراده وتساعده على فتح الباب ليتعلق بالزجاجة المزركشة بالسكاكر الملونة التي يعشقها.. تأخذ منها قبضة وتضعها في كفه، فيمد كفه الأخرى فتضحك وتملاها له أيضا.. يقبع في زاوية الغرفة مع كنزه الثمين، يعبئ فمه الصغير بالحلوى فينتفخ ويفيض شهدا ملونا، على أرانب القميص الأبيض.. يسمع صوت جارتهم تحادث أمه في الفناء فيهب مسرعا لأنه يعرف ان صديقته الصغيرة، التي كالدمية، برفقتها.. يمسك يدها برفق، ويقنعها باللغة الملائكية أن ترافقه الى مخدعه. وهناك يدس في فمها الصغير قطعة حلوى ويقبلها، ثم يدس أخرى بقبلة أخرى، حتى باتت تسمي السكاكر، قبلات.. وكلما جاءت مع أمها، تتسلل الى

مخدعه مسيرة، وتمد عنقها وتمط شفتيها ليأخذ ثمن الحلوى. وبمرور السنين ، غدت القبل عندهما، أشهى من السكاكر والذ ، لكنهما لم يجدا من يدس القبل لهما، كأيام زمان. كما ان الاكرة الخزفية الملونة باتت عالية جدا، مثل نجوم السماء، ولم تعد أيديهما تصل إليها، حتى لو وقفا على أطراف رموشهما.

الوفاء القاتل

كانت هي مطلبه الأخير، على فراش الموت.. لثمها و أغمض عينيه عليها بابتهاج ، وتنفس منها الصعداء:

عشرة عمر(قال في سره وهو يزفر بصعوبة بالغة) ثم تركها مسجاة في سريرها الخزفي الأبيض، وقد أحالته شاحبا، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة معه.

يا لوفائك يا صديقتي (فكر) كلما انفض عني الأهل والأصدقاء، كنت أجدك الى جانبي.. وحدك كنت دائما رهن الأنامل والشفاه.. أتذكرين كم سهرنا معا.. عددنا النجوم والأحلام معا.. ولكم بفضلك أنت غدت الدموع والآهات قصائدا.. كنت دائما تحسنين الاصغاء، ولا تتحدثين إلا همسا.. وحدك من تجيد السمر يا لفافة الموت والحياة.. وها نحن الآن نموت معا.. يا لوفائك القاتل يا صديقتي!

جيل اخر زمن

كانتا تتجاذبان أطراف الحديث، في أمور شتى، حين انتفضت احداهما، مستنكرة ماروته صاحبتها توا:

اوف!.. معقول؟ سبع سنوات؟

نعم.. كلاهما في السابعة.. أتصدقين؟

فعلا جيل اخر زمن.

ومع الجملة الأخيرة، لمحت كلتا العجوزتين ، في وجه الأخرى، ضحكة ماجنة مقموعة، خلفت ابتسامة غامضة ماكرة، كابتسامة الموناليزا... راحت المستنكرة تنبش ذاكرتها، عن ابتسامة مماثلة.. لقد رأتها سابقا، ولكن أين ومتى؟.. أين.. أين؟ ثم أخيرا عثرت عليها، في تلافيف عميقة تعود الى سبعين عاما.. كانت آنذاك في السابعة من العمر، حين انتزعتها جدتها من تحت السرير، مع ذاك الجني الصغير، وصفعتهما بلطف وهي تقول(جيل آخر زمن) وقد ارتسمت على فم الجدة، آنذاك، نفس الابتسامة الغامضة الماكرة التي غمرت وجهيهما الآن.

أنا والقط والعصفور

أقعى في الشرفة المقابلة يبكي مواءا.. لقد تركه اصحابه، محتجزا هناك، يتضور جوعا.. كنت أفكر بطريقة ما، تضمن وصول الطعام إليه، حين مر في الشارع صبي، يربط عصفورا بخيط يلوح به ثم يقذفه في الهواء فيقع متخبطا بجناحيه الداميين، ليعاود التقاطه ورميه مجددا ويكرر فعلته بلا انقطاع.. انساني هذا العصفور المعذب، القط الجائع، فعزمت على الهبوط الى الشارع وانقاذه من يد هذا الطفل المشاغب .. ما كدت أتحرك من مكاني، حتى وقع العصفور في الشرفة المقابلة، فانقض عليه القط بلمح البصر وخطفه بأسنانه الرحيمة، وراح يلوكه بشراهة.. ارتاح صاحباي، وبقيت اتعذب وحدي، ريثما يأتيني القط.

ذات ليلة صيف

تسلل كعادته دون أن يلحظه أحد، أو هكذا ظن.. ارتقى السلم الخشبي الى سطح الدار المرشوش المفروش، حيث ارتمى على الفرش، يستمتع ببرودتها اللذيذة ويتدحرج عليها من أولها لآخرها.. تناهت لسمعه ضحكاتهم، من فناء الدار.. غدا سيكون هذا الفناء خاليا، لأن الضيوف الذين أمضوا ثلاثة أيام العيد هنا، سيسافرون في الصباح الباكر.. اعتصرت قلبه الصغير هذه الفكرة الموحشة، فتوقف عن اللهو واستسلم لضوء القمر، يحدق به بأسى.. هل سيكون بهذا الاشراق والبهجة غدا؟ لقد اعتاد عليهم.. تعلق بهم.. ليت أيام العيد تتواصل طول العمر.. امتدت لعينيه كفان دافئتان لدنتان واغمضتاهما.. عرف مَنْ تكون.. أمسك بيديها وجرها بلطف.. أفلتت منه ورمته بوسادة من بعيد فأخطأته .. أعادها عليها فأصابها.. قالت:

كان عليك ان تشكرني لأنني انقذتك من الحزن.

سألها متعجبا:

ما أدراك انني حزين؟

ردت بسرعة: لمحت عينيك، حزينتين، قبل ان تتسلل سألها، مندهشا، اذ كان يظن حين أن احدا لم يره ؟

وهل رأيتني اصعد؟

قالت بنظرة تشع مرحا وذكاءا:

تبعتك بعيني، درجة درجة، دون ان التفت اليك.

لا يدري ما اصاب كيانه حينئذ.. ولشدة خجله أراد أن ينهي الأمر بسرعة فقال:

حسنا.. شكرا لك .

قالت:

لا.... ما هكذا يكون الشكر.

قال مثل تلميذ مهمل: وكيف يكون؟

ردت بسرعة وكأنها قد أعدت الحوار كله، حرفا حرفا، من أوله الى آخره، ليفضي الى هذه الكلمة:

ان تقبلني!

الجمته المفاجأة.. تردد ثم اقترب منها.. مالت إليه بخدها فطبع عليه قبلة العمر.. لا يدري أي الجسدين اختلج لها حينئذ.. كانت جاثية حين انحسر الثوب عن انثناءة ركبتها، فأشرقت بنور القمر للحظة.. وإذ شعرت بوخز نظرته لها، هبت واقفة واختفت مثل حلم.

اصاخ السمع لأصواتهم في الفناء، خشية أن تشي به.. كانوا يعصرون الليلة الأخيرة مرحا، لحظة لحظة.. حتى أتوا عليها كلها، ودب النعاس في العيون، فراحوا يتزاحمون على السلم،

صعودا وهبوطا، حتى استقر الجميع في فرشهم، وتبادلوا آخر الهمسات حتى انطفأت. وخلدوا للنوم، الا هو فلقد خشي أن تأخذه نومة عميقة، تحرمه وداعها صباحا .. ظل يتقلب على جمر حلمه ويجتر تفاصيله الدقيقة مرة تلو أخرى حتى انبلج الفجر وسقسقت العصافير بين أغصان التوت وأعذاق النخيل، نزل الضيوف ليحزموا أمتعتهم. وجلس هو على منتصف السلم، يتابعهم بحزن وصمت.. مرت بالقرب منه مرارا، ولم تقل صباح الخير.. مرت بجانبه كأنها لم تره.. دخلت احدى الغرف وخرجت منها بعد قليل، مثل أميرة باذخة الجمال.. كيف تابعته البارحة درجة درجة .. ولا تراه وهو جالس وسط السلم، في طريق ذهابها وايابها؟.. فرغت أمه من إعداد فطورهم، فتناولوه على عجل ورحلوا.

رحلت كأن شيئا لم يكن.. بلا وداع ولا كلمة ولا نظرة واحدة عابرة حتى.. لماذا؟.. لا يدري.. احتوته الوحشة والحيرة معا وظل يؤرقه السؤال:

لماذا بدأت الامر هي.. وانهته هي.. في ليلة واحدة يتيمة مثل واحة زائفة وسط الصحراء..؟ لماذا...؟

استعاد الذكرى العتيقة التي ما فتيء يستعيدها، محملة بالأسئلة، طول العمر، دون ان يجد لها تفسيرا غير سوء الحظ .. مد يده المعروقة وأسدل الستارة البيضاء على نافذته، فبدت ظلال قضبانها مثل سلم خشبي كان القمر يتابعه، درجة درجة، دون أن يلتفت اليه.

آخر مالم يقله ليث

اه يا صديقي.. لا جدوى من الاتصال بي مجددا، فلقد اغمضت احدى الممرضتين الهولنديتين جفني على دمعة لسعت صدغي حرارتها.. وأسدلتا الشرشف الابيض على وجهي، وهما تتمتمان بكلمات مبهمة.. لا ادري.. ربما كانتا تعدان لرحيل ما.. فلقد كانتا حزينتين، على غير العادة، قبل أن تتركاني وحيدا، مع شبحيهما النورسيين المهومين في جو الغرفة.. الجو الذي ، ويا للعجب يا صديقي، غدا مفعما برائحة الهور الوغرة، بدلا من رائحة الدواء والمطهرات المعهودة.. ثم تناهت لسمعي همهمة بعيدة، سرعان ما تبينت فيها صوت أبي يقول؛ اننا سنعود الى بغداد غدا، وسمعتك تتوسل إليه أن نمكث يوما آخر، وسمعتني أرجوه معك.. إلا انه نهرنا بلطفه المعهود ، ثم عبق جو الغرفة برائحة الشواء، وتذوقت لحم الأوز الحر، قبل أن تتساقط تلك السويعات المبهجة في هاوية الزمن، وتجرف معها عربات القطار من البصرة الى بغداد.. وسمعت ضحكاتنا تتبعثر على طول الطريق، قبل ان اشعر بوجع نهاية ما.. آه يا صديقي.. لا ادري، أكان ذلك لأن القطار قد وصل

الى محطته الأخيرة، ام ان طائرة ما قد حطت توا في مطار مقبرة ما..

خيم الاسى والوجوم على كل شيء، إلا من بقايا ضحكتك تتبدد. لا، لا، انه نحيبك يا صديقي! لا تلمني! لم أسمعك من قبل تنتحب.. كنت دائما تضحك. لذا حسبتك الآن تضحك. لا أدري لم يكون الأسى باردا الى هذه الدرجة..؟ ولماذا عبق جو الغرفة برائحة تراب خانقة هذه المرة؟

أنت وخمس المباهج

الواقفون هنا وهناك، على ناصية الشارع الطويل، بانتظار سيارتك المهلهلة، هم كل مباهج حياتك التي تلملمها في الرواح والمجيء برضا وحبور.. ترد تحياتهم بلهجة شحاذ مع من تصدق عليه توا.. وكلما نزل أحدهم شيعته بنظرة أم تودع وحيدها، وأغدقت عليه بالدعوات التي لا تمل تكرارها.. فاذا عدت الى القبر الذي تدعوه بيتك، و تحلقت حولك الأشباح الجائعة، عمدت الى انتزاع اللقمة الخامسة من كل فم، لتقدمها مباهج مسلفنة، للعمامة المكتنزة القابعة في زاوية الخراب، حيث الرجل الذي يتصل بالسماء لأجلك، كي يمهد لك الطريق، بلا مطبات ويملا ناصيتها بالمباهج .

آثار جانبية لزواج شرعي جدا

ما الذي يسع طفلة إلا ان تستسلم لكهل في الخمسين، بعد خوف ودموع غير مجدية.. عضت على شفتها، وأشاحت بوجهها صوب العينين الزجاجيتين الزرقاوين، لعلهما تنجدانها، وقد أطبقت بأصابعها على الجسد البارد الصغير وتوسلت، لا تدري لمن، ان يجعلها دمية مثلها، ريثما ينتهي هذا الرجل الخشن من لعبته الغامضة المريبة، وتعودا الى البيت معا.. وتنسيان. فرغت يداه الشرهتان من نزع الاكمام عن الوردة، حتى لم تعد وردة بعد .. ابتلع الليل الصرخة .. هوت الدمية من السرير السابع الى الارض، بصوت مدو.. فيما كانت السماء تتلصص بنجومها عبر زجاج النافذة وتلوذ بصمت القوادين.

جمر تحت سرير الرماد

كانت تقف بالباب، كالأخريات، تدعو الزبائن بإشارات خفية.. مراء شاحبة نحيلة، تعافها العيون الشرهة للأجساد ، وبوجود جارة لها شقراء باذخة الفتنة ، تكاد فرصتها باصطياد زبون أن تكون معدومة، تجاهلت غمزة عينها وتعلقت بالضفيرة الذهبية الطويلة والعينين الخضراوين . كانت الشقراء مثل زمردة كولمبية في كومة حصى ، وبدا لي انها تدرك ذلك بكبرياء يبعث على الشفقة والسخرية معا .. كبرياء بدا، في هذا الماخور العفن ، مثل ثوب ملكي على شحاذة بائسة.. وقبل أن أصحو من ذهولي، أمسك احدهم بكفها الوردية واقتادها خلفه الى الداخل، بحركة تنم عن معرفة سابقة واحتراف، الامر الذي أغاظني، فاشحت بوجهي سريعا صوب تلك السمراء، التي مازالت عيناها مسمرتين بعيني وتلمعان بسواد حزين ندي.. ودون أن افكر بالأمر، تقدمت نحوها، فمدت يدها مصافحة، وأخذتني الى الداخل، فتبعتها بصمت. وقد تنحى الرجل الاربعيني الضخم عن طريقنا، مشيحا بوجهه عني كانه لم يرني، وهو يقرع حبات مسبحته الحمراء الكبيرة، بانفعال، فتصدر قرقعة صاخبة.

بدت الحجرة خالية، إلا من سرير واطيء عليه فراش طمس ألوانه وسخ قديم.. أغلقت الباب خلفنا بإحكام، كأنها تخشى أن يفر صيدها الثمين .. أمسكت بكلتا يدي.. نظرت إلي بشغف وحبور كمن كانت تنتظر قدومي بنفاذ صبر، إذ سرعان ما تولت الأمر بنفسها . فعلت بي كل ما كان خيالها الجامح يحلم به، طوال سني الانتظار.. استسلمت لها تماما، فقد كانت تتصرف معي على نحو لم آلفه طوال حياتي الملوثة بالتجارب المقرفة.. لقد فعلت بي كل ما تمنيت، وما لم أتمن أو أحلم به حتى. وتعمدت أن تطيل الأمر، بخلاف أمثالها اللائي يعمدن الى اتمامه بسرعة، وكأن لحظاته، بأيديهن، جمرا.. والحق انه كذلك ، اذ يلقين زبونا ليلتقطن غيره على عجل.

يبدو ان الوقت قد طال أكثر مما يحتمل الوحش القابع عند الباب، اذ سمعته يزمجر بكلام لم أفهمه ، قالت:

لا تهتم له ! انه ينبح هكذا طول الوقت.

باستثناء تلك الكلمات، لم ينبس أي منا بكلمة واحدة، غير تنهداتها التي كانت أقرب الى البكاء.. بدت لي كأنها تعاشر كائنا خفيا، يقع خلف جسدي.. وتحدق، عبر عيني، بعينين غيبيتين أعمق منهما، وأخيرا، وفي ذروة اللذة، فاضت عيناها بالدمع.. وانسلت من بين يدي تكفكف دموعها. ثم توارت، لتعود سريعا، بثوب جديد، يقطر شعرها وجهها ماءا، وقد بدت، في تلك اللحظات، أجمل من كل الشقراوات.. أمسكت يدي بكلتا يديها، كما فعلت أول مرة، وضعت عينيها بعيني بكل أسى الوداع.. ثم

استلت من تحت مشد الصدر ورقة نقدية، وضعتها بيدي وأطبقت عليها أصابعي بإصرار. .الجمتني المفاجأة لحظة، قبل أن أنتفض معترضا واردها لها.. قالت :

ارجوك.! لا تردها فهي ليست لك ، بل لهذا الحيوان القابع هناك.. أتوسل إليك ألا تحرمني لحظة كرامة، فقدتها منذ زمن بعيد...اتدري؟ معك فقط شعرت بإنسانيتي مجددا..(ثم أردفت) ما اسمك؟ وقبل أن أرد وضعت سبابتها على شفتي وهتفت:

لا.. لا.. لا تقل شيئا! دع لي الاسم الذي اعرفه!

فتحت لي باب القفص وهربت الى الداخل، لا تريد رؤيتي أفر بعيدا، وقد فعلت، دون أن أعرف ما كانت ترمي إليه.. كانت يد الوحش ممدودة تعترض الباب، فوضعت بها المال وأزحتها جانبا ثم انطلقت في الشارع، يتولاني عجب مما رأيت. ولمحت الشقراء، بكبريائها المهلهل، تقف عند بابها، أقل جمالا مما بدت اول مرة. وقبل أن انعطف الى الشارع الرئيسي، شعرت بنظرة تخز قفاي.. تسمرت مكاني، ثم استدرت .. كانت تتكئ على الجدار، وتتعقبني بعينيها من بعيد.. شعرت بفضول لا يقاوم لمعرفة سرها، فعدت، كانت تعد خطواتي وهي تقترب منها رويدا رويدا ، ومعها.. كانت عيناها تتسعان.. يا لله .. ان الفتنة، في عيني امرأة محبة، تتجاوز كل جمال.. وقفت أمامها صامتا فقالت وقد تهدج صوتها واغرورقت عيناها بالدمع:

لو لم اكن قد اهلت عليه التراب بيدي هاتين، لقلت انك هو.. هو الذي اخذه اعصار الحرب مني مبكرا، وألقى بي إلى هذه المزبلة.!

أرقام

وضع طاقة الزنابق البيضاء بين يديها، مهنئا بعيد ميلادها، فردت بابتسامة عذبة؛ شكرا ! وهي تتابع المدعوين بعينيها.. لم يكن يعرف أحدا، فتشاغل بعد الشموع (ستا وعشرين).. شمل الحضور بنظرة عجلى قبل أن يسترخي في أحد المقاعد، ويستسلم لصوت فيروز..(بتطل بيوقع مني الكاس.. وحدي الي بشوفك من هالناس..) كان مطرقا يدلك حبات الكهرمان (ثلاثا وثلاثين) في مسبحته الصغيرة، مرارا وتكرارا، فتعبق برائحة غابات الصنوبر العتيقة. فيما كانت هي تحصي زنابقة (تسعا وخمسين) واجمة، قبل أن تلقي إليه نظرة عذبة أخرى، وتتوارى بين الضيوف فلم يعد يراها.

شعر بغربة الزمان والمكان، فانسل بهدوء نحو الباب، وهناك ألقى النظرة الأخيرة على زنابقه المسجاة على الطاولة الصغيرة، قبل أن يخرج كما دخل، دون ان يلحظه أحد.. وفي الشارع كانت اوراق أيلول تتواثب بين خطواته على صوت واهن من بعيد:

كنا تودعنا وصوتك غاب،
وناداني العمر الخالي .
ولما ع حالي سكرت الباب،
لقيتك بيني وبين حالي.

الفهرست

المقدمة ٩
الجنة ١١
الشرفة الزجاجية الزرقاء ٢٢
يوم الرؤية ٢٥
الغميضة ٣٠
حلم جلجامش ٣٥
أينا الذي مات آنذاك؟ ٤٠
رهان الاله الضفدع ٤٤
قاع الجحيم ٤٩
القسم ٥٣
قلب ابيض بجناحين ٥٦
اليوم الذي احال ما بعده ركاما ٥٩
الغائب الحاضر ٦٣
ختان العقل ٦٥
رسالة لا يمكن قراءتها ٦٨
التوأمين ٧٠
حميد قيق ٧٣
اش ٧٥
مخلفات الاخرين ٧٧
تواصل بعد الموت ٧٩
الموت صيفا ٨٢
سكاكر القبلات ٨٤
الوفاء القاتل ٨٦
جيل آخر زمن ٨٧

أنا والقط والعصفور ٨٨
ذات ليلة صيف ٨٩
آخر ما لم يقله ليث ٩٢
أنت وخمس المباهج ٩٤
آثار جانبية لزواج شرعي جدا ٩٥
جمر تحت سرير الرماد ٩٦
أرقام ٩٩

Dar AL-sawaf
for Printing and Publishing
D.S.P.P
جمهورية العراق / بابل
Mob: 07801168410
E-mail:w_alsawaf@yahoo.com